الأمير العابد

محمود بن زنكي

إعداد

محمد حامد محمد

الأمير العابد

محمد حامد محمد

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م



الناشر



دار العلوم للنشر والتوزيع - القاهرة

هاتف : ٢٥٧٦١٤٠٠(٢٠٢) فاكس: ٢٥٧٩٩٩٠٧(٢٠٢)

الموقع الإلكتروني :

www.dareloloom.com

البريد الإلكتروني :

daralaloom@hotmail.com

daralaloom2002@yahoo.com

مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي جعل في كل زمان رجال يعيشون من أجل أمتهم، ويحملون هم دعوتهم، والصلاة والسلام على من قال: (يبعث على رأس كل مائة سنة من يحيى هذا الدين).

ثم أما بعد...

فالمتأمل في صفحات تاريخنا المشرق، يجد نماذج ساطعة سطوع الكوكب في كبد السماء، يضئ الظلمات، ويهدي الضال، ويرشد السالك.

رجال الواحد منهم بأمَّة، سخرهم المولى لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته.

ومن هؤلاء "الأمير العابد"... نعم أمير وعابد في آن واحد، قلَّ وجوده في هذه الأزمنة.

إنه: محمود بن زنكي بن آق سُنْقُرَ، صاحب بلاد الشام وغيرها من البلدان الكثيرة.

أخباره منثورة في بطون كتب التاريخ، فأحببت جمعها وصياغتها في كتاب يلم شمل قصة هذا الأمير، فجاء هذا الكتاب: "الأمير العابد" والذي أسأل المولى تبارك وتعالى أن ينفع به.

هو ولي ذلك والقدر عليه

المؤلف

الفَصْلُ الأَوَّلُ

هو ابن من ؟

الفصل الأول

هو ابن من ؟

عندما ادلهمت الخطوب. ولفَّ المشرق الإسلامي ظلام دامس باحتلال الصليبيين لبلاد الشام وفلسطين.

سالت شلالات الدماء . احتلت المدن والقرى و دمرت .اغتصبت المقدسات والأرض والعرض وسرقت الثروات ونهبت البيوت ..وفي غمرة هذا التمزق والإحباط كان المسلمون يتطلعون إلى ظهور قائد مغوار يلم شعثهم ويداوي جراحاتهم ويجمعهم على كلمة التوحيد .يسير بهم في طريق الجهاد لتحرير الأرض المغتصبة وينقذهم من طاعون الاحتلال ويضع حدا لبيع الولاة والحكام ضمائرهم للمحتل.

إن الأرحام التي أنجبت الأبطال العظام الذين غيروا حركة التاريخ ومساره، ورفعوا لواء الإسلام، وتقدموا بالمسلمين نحو الأمجاد والبطولات، لم ولن تعقم أبدا عن أن تنجب جيلا من القادة الأبطال، يستكملون مسيرة الآباء، ويعيدون مجد الأجداد.

بدأت الحملات الصليبية على العالم العربي الإسلامي عام ١٠٩٨ م - ٤٩١ ه ، كانت دولة المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية عشية بدأ الحملة الصليبية على العالم الإسلامي عام ٤٩١ للهجرة – ١٠٩٨ للميلاد .أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة .

دعا البابا أوربان الثاني لاسترداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وأعلن أن كل من يشترك في هذه الحروب المقدسة تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات المقاتلين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وطلب أن يخيط كل محارب صليبًا من القماش على ردائه الخارجي ومن هنا جاءت تسمية الصليبيون والحملات والحروب التي أعقبتها سميت بالحملات والحروب الصليبية.

بعدما احتل الصليبيون عملوا على تجنيد حكام وأمراء الولايات والمناطق التي احتلوها او القريبة منها.

«وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و كسب ود الصليبيين ,الذين استطاعوا بمساعدة الخونة والعملاء حصار بيت المقدس واسقاطها ثم احتلالها » .!!

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى واحدا بعد الآخر ,وهكذا تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية.

استطاع الصليبيون -بعد حملتهم الأولى -أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة خلال الفترة من ٤٨٩ هـ = ١٠٦٩ م إلى ٤٩٨ هـ = ١١٠٥ م، وأنشئوا فيها إماراتهم الأربع :الرها، وإنطاكية،وطرابلس، وبيت المقدس.

وفي ليل اليأس المطبق وظلام الانكسار الموجع والاستسلام المهين، لاحت بارقة أمل في العيون، ما لبثت أن صارت شعاعا توهج ليضيء الطريق، فانتبهت النفوس من غفوتها، وأفاقت القلوب من حسرتها،وتلاقت الهمم وتوحدت السواعد، والتف الجميع حول ذلك البطل المرتقب الذي جاء ليحقق الحلم،ويجدد الأمل، ويمحو شبح الهزيمة، ويعيد العزة والكرامة إلى ملايين المسلمين، ليس في عصره فقط، وإنما لجميع المسلمين عبر العصور والأزمان.

فمن هو هذا البطل الذي حمل على أكتافه أمانة التحرير ولواء الجهاد، ووضع أسس تحرير بيت المقدس من دنس الاحتلال؟

هو الملك المنصور البطل التركماني المسلم عماد الدين زنكي.

ولد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان "نحو سنة ٤٧٧ ه= ١٠٨٤ م في أسرة تنتمي إلى قبائل" الساب يو "التركمانية الشديدة المراس، كان والده" آق سنقر "مملوك السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان مقربا إليه، ذا حظوة ومكانة لديه، اعتمد عليه السلطان في كثير من الأمور فلم يخذله آق سنقر قط، وهو ما جعله ينال ثقته ورضاه، وزاد من مترلته عنده .

تولى آق سنقر ولاية الموصل سنة ٥١٦ للهجرة بأمر من الخليفة العباسي المسترشد بترشيح من السلطان محمود ابن السلطان محمد بن ملكشاه وفي سنة ٥٢١ هـ ملك حلب واستولى على الرحبة والجزيرة وفتح الرها (سنة ٥٣٩ ه , وكان يحتلها الصليبيون بزعامة جوسلان .

لم ينس السلطان محمود بن ملكشاه تضحية" آق سنقر "في سبيل عرشهم ووفاءه لهم، فوجه جل اهتمامه وعنايته نحو ابن آق سنقر الوحيد عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره عند وفاة والده.

نشأ عماد الدين في" حلب "في رعاية السلطان محمود السلجوقي، ثم ما لبث أن انتقل عام ٤٨٩ هـ= ١٠٩٦ م إلى" الموصل "ليحظى برعاية القائد السلجوقي" كربوقا"، فظل ملازما له حتى توفِّي سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م ، فخلفه عليها" شمس الدين جكرمش "الذي قرب عماد الدين لما لمس لديه من مقدرة عسكرية ومهارة قتالية عالية ، فأحبه واتخذه ولدا .ظل عماد الدين ملازما له حتى توفِّي سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م ، فتولى" الموصل "من بعده" جاولي سقاو"، وتوطدت علاقة عماد الدين بالوالي الجديد، حتى خرج ذلك الوالي على السلطان، فانفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد "مودودو بك التونتكين "الذي عينه السلطان محمود على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته فيه، وزيادة حظوته ومكانته عنده.

خاض القائد التركماني عماد الدين زنكي إلى جانب القائد" مودود "معارك كثيرة ضد الصليبيين المحتلين في" الشام "و"الجزيرة"، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية.

ومع مطلع عام ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م استطاع السلاجقة ـ بفضل الخطة البارعة التي اتبعها عماد الدين ـ إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش" دبيس "الخارج على الخليفة العباسي، وخلصوا الخلافة من خطر محقق كاد يعصف بها ، فانضم "دبيس" إلى الصليبيين بعد هزيمته أمام عماد الدين، وساهم معهم في حصار "حلب" طمعا في الاستيلاء عليها.

وعندما تدهورت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد والسلطان السلجوقي" محمود "في عام ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م كان لعماد الدين دور كبير في إنهاء الصراع بينهما، وتجاوز الأزمة بأمان قبل أن يتفاقم الموقف، وتحدث مواجهة وخيمة العواقب بين الطرفين.

أن الخاصية التي تميز التركمان كقبائل البدو الرحل، إنهم يعتبرون البقعة التي يستوطنون فيها موطنا لهم،يدافعون عنها ويذودون عن حياضها، هذا وقد شارك التركمان، المعروفين بوفائهم و بفروسيتهم ، في جميع الحروب التي خاضتها القوات الإسلامية لتحرير بيت المقدس .

سعى الصليبيون إلى بسط نفوذهم وإحكام السيطرة على المزيد من أراضي البلاد وإنشاء إمارات جديدة والإمعان في السلب والنهب والقتل.

لم يشأ القائد التركماني المغوار عماد الدين زنكي في البداية أن يدخل في حرب مع المحتلين إلى أن يوطد دعائم إمارته الجديدة، ويدعم جيشه، ويعزز إمكاناته العسكرية والاقتصادية قبل أن يقدم على خوض غمار المعركة ضد الصليبيين .فعكف هذا القائد المحنك على وضع استراتيجية محكمة لتوحيد الإمارات والولايات الإسلامية الصغيرة المتناثرة والمتناحرة فيما بينها وجعلها تحت قيادة قوية .ومن ثم العمل على تهيئة الأمة الإسلامية وتوحيدها قبل أن يخوض معركتها المرتقبة .ولتنفيذ هذه الاستراتيجية ، استولى عماد الدين على إمارة" حلب"، كما هاجم عددا من المواقع المحتلة المحيطة بها، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها، كما تمكن من الاستيلاء على" بعرين "التي وجد الصليبيون في استيلائه عليها خطرا يهدد أماراتهم في المشرق .وقد حاول الصليبيون إنقاذ" بعرين"، ولكن حملتهم التي قادها الإمبراطور البيزنطي" حنا كومنين" فشلت في ذلك.

ثم عمل" عماد الدين "على تفتيت التحالف الخطير الذي قام بين الصليبيين في الشام والبيزنطيين،واستطاع بحنكته السياسية، أن يزرع بذور الشك بين الطرفين ليقضي على التعاون بينهما، كما سعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدة والإمدادات العسكرية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وفي السياق نفسه وجه عماد الدين زنكي جهود إلى توحيد المسلمين .فقد حاول الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي

لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر الحكم هناك راسل الصليبيين للتحالف ضد عماد الدين زنكي وهو ما اضطره إلى التراجع عنها. ولكنه استطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة" الرها "الصليبية، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير" الرها "وبين حلفائه.

وكانت إمارة" الرها "واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق، وذلك لقوة تحصينها، وقربها من "العراق "التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية، ونظرا لما تسببه من تهديدات وأخطار للمناطق الإسلامية المجاورة لها.

ومن ثم فقد اتجهت نية" عماد الدين "إلى إسقاطها، وعزم على فتحها، وراح يدرس الموقف بدقة، فأدرك أنه لن يتمكن من فتح" الرها "إلا إذا استدرج "جوسلين -"أمير" الرها -"وقواته خارجها، فوضع خطة بارعة أتاحت له الوصول إلى مأربه؛ إذ تظاهر بالخروج إلى" آمد "لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير" الرها"، الذي ما إن اطمأن إلى انشغال" عماد الدين "عنه بحصار" آمد" حتى خرج بجنوده إلى" تل باشر -" على الضفة الغربية للفرات -ليستجم ويتفرغ لملذاته.

وقد كان هذا ما توقعه" عماد الدين"، فأسرع بالسير إلى" الرها "في جيش كبير، واستنفر كل من يقدر على القتال من المسلمين لجهاد الصليبيين، فاجتمع حوله ٢٠ ألفا من المقاتلين التركمان الأشداء و حشد هائل من المتطوعين العرب والأكراد، فحاصر" الرها "من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهل" الرها" بالطرق السلمية، وبذل جهدا كبيرا لإقناعهم بالاستسلام، متعهدا لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع جيوشهم لإنقاذ المدينة.

وبعد ٢٨ يوما من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات القائد التركماني المنصور "في ٢٨ من جمادي الآخرة ٥٣٩ هـ = ٢٧ من نوفمبر ١١٤٤ م ، فأصدر" عماد الدين "أوامره إلى الجند بالتوقف عن القتال أو الأسر أو السلب، وأمر بإعادة جميع ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه .

وضرب بذلك أروع مثال على الشهامة والفروسية، والأخلاق الإسلامية الرفيعة .وبدأ من فوره بإعادة أعمار المدينة .فأعاد بناء ما تهدم من أسوارها، وما تهدم من بيوتها أثناء اقتحام المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى عم الأمان وهدأت النفوس وكسب القلوب والعقول .ثم أمر بان يحتفظ النصارى بكنائسهم وصومعهم وسمح لهم بأداء عبادتهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وأمان.

أن ظهور وبروز القائد التركماني البطل عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، قد وضع الأسس العسكرية والسياسية الجدية وفتحت صفحة جديدة لتحرير الأراضي الإسلامية المغتصبة، وقد أكمل

المسيرة ابنه البطل نور الدين زنكي وأكمله القائد الكردي المغوار صلاح الدين الأيوبي وحرر بيت المقدس.

تولى عماد الدين زنكي ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١ هـ بعد أن ظهرت كفاءته في حكم البصرة وواسط .، وفي محرم سنة ٥٢٢ ه تمت له السيطرة على حلب . وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين.

استمر جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين واستنهاض عوامل القوة الكامنة فيهم .فملك عماد الدين زنكي مدن :حماة وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر ،وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقلعة أشب وغيرها .

وفي سنة ٥٣٤ هـ حاول عماد الدين زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر الحكم هناك "معين الدين أنز "راسل الصليبيين وتحالف معهم ضد عماد الدين زنكي ووعدهم بأن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن عماد الدين زنكي فاجئهم قبل قدومهم لدمشق فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا .

ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج ثم استولى عليها وسلمها للفرنج .

لم يخلوا زمان من العملاء وبائعي الأوطان والمتحالفين مع المحتلين، وهذه سنة الحياة ودورة التاريخ!!

غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لهذا القائد والحاكم السياسي التركماني هو فتحه للرها وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها لمدة أربعة أسابيع وفتحها عنوة في ٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ ه، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة.

كان فتح" الرها "هو أجلّ وأعظم أعمال" عماد الدين"، ولم يمض عامان على ذلك النصر العظيم، حتى تم اغتياله في ٦ من ربيع الآخرة ٥٤١ هـ = ١٥ من سبتمبر ١١٤٦ م خلال حصاره لقلعة" جعبر "على يد" يرنقش -"كبير حرسه -الذي تسلل إلى مخدعه فذبحه وهو نائم.

ويرى عدد من المؤرخين أن اغتيال" عماد الدين زنكي "جاء لأسباب سياسية ، فقد كان في أوج انتصاره على الصليبيين المحتلين، كما حقق انتصارا آخر علي المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، وتأسيس جيش قوي عماده ٥٠ ألف مقاتل تركماني ومتطوعين عرب وأكراد، ومن ناحية أخرى فقد كانت قلعة" جعبر "على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مداه،فضلاً عن أن قاتله" يرنقش "كان من الباطنية، وقد استطاع التستر والانتظار طويلاً -على عادة الباطنية- حتى حانت اللحظة المناسبة

لتنفيذ جريمته، فاغتال" عماد الدين "ذبحا، وهو في قمة مجده وانتصاره وكان عمره قد زاد عن ستين سنة .تغمده الله بواسع رحمته[1].

وعن شخصية هذا التركماني المسلم الغيور قال ابن الأثير[2]:

فقد كان عماد الدين زنكي شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمَّرها وامتلأت أهلاً وسكانًا.

وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعًا مقدامًا حازمًا، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة ..واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد".

ودفن بصفين، وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل وخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب.

لقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة . من استشراء الفساد والتراع بين أمراء والولاة والتناحر والتشرذم والمؤامرات بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في أحيان أخرى، ومع ذلك فقد استطاع أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة المحتلين الغزاة في مواقع كثيرة، ويسر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض،وقدم نموذجًا للحاكم المجاهد تحت راية الإسلام، وقوى الأمل باسترجاع المقدسات[3].

غير أن أفضل أثر تركه حسب ما يذهب إليه المؤرخون هو ابنه نور الدين محمود زنكي.

بعد استشهاد عماد الدين زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين نجليه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود- بعد حوالي عشرين عامًا من سقوط القدس في أيدي الصليبيين -في ١٧ شوال ٥١١ هـ- فبراير ١١١٨ م . وبحكم نور الدين دشنت صفحة جديدة رائعة من صفحات التحرير في بلاد الشام، وطوال ٢٨ عامًا من وضع نور الدين زنكي في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام واستكمال ما بدأه والده الشهيد..

ومنذ تلك اللحظة أخذ يخطط ويأخذ بالأسباب ويعد العدة والعتاد ويوحد الجهود المسلمين ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين وطرد المحتلين من بلادهم..

فيا ترى من هذا البطل القادم ؟

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (٢٢٢/١٤)، تاريخ الإسلام (٦٢/٣٧)، البداية والنهاية (٢٧٥/١٢).

(٢) الكامل (١٠٩/١١)، وانظر: الروضتين في أخبار الدولتين (١٠٨/١).

(٣) راجع: المنتظم (٥١/١٨)، وفيات الأعيان (٣٢٧/٢)، سير أعلام النبلاء (١٨٩/٢٠)، الوافي بالوفيات (٢٢١/١٤)، الروضتين (١٠٩/١-١١٨).

وكيف غير ملامح المنطقة بجهاده ؟
هذا ما يتناوله هذا الكتاب ... في الصفحات القادمة .

الفَصْلُ الثَّانِي

هذا الشبل ... من ذاك الأسد

الفصل الثاني

هذا الشبل ... من ذاك الأسد

مؤمن صادق الإيمان .جلس على ظهر فرسه أكثر مما جلس على عرشه .رقد في الخيم والتحف السماء مع مقاتليه أكثر مما نام بجوار أهله .تجول في الفيافي في قرِّ البرد ولحيف الحر أكثر ما تمتع بالتتره في بساتين وحدائقها الغناءة . زخرف طعنات السيوف والرماح جسمه بدلا من التزين بالحلى والجواهر والأوسمة.

فارس زاهد لم يتكرر . زخَّ عرقا في سوح القتال أكثر من التزين بعطر العود والمسك أو القيلولة في أحواض الحليب . مجاهد عظيم . زاهد متصوف لم يغمض له الجفن الا منتصف الليل لينهض في الثلث الأخير من الهزيع ليتهجد.

يقبل على الصلاة والدعاء والاستغفار كأنه يحمل على عاتقه خطايا الناس أجمعين .يتلوا ما تيسر من القرآن الكريم حتى ينبلج الفجر ليوقظ أهله ان كان بينهم أو قواده وجنوده.

إن كان في ساحة الوغى والجهاد ليؤم فيهم صلاة الفجر ثم يجلس لتمشية شؤون دولته واستقبال ابناء رعيته لقضاء احتياجاتهم.

قال ابن الأثير في بيان فضله(١):

"قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه".

قال ابن كثير: وقد كان نور الدين حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محبًّا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وأهله وعياله في المطعم والملبس، لم تُسمع منه كلمة فحش في غضب ولا رضًا. أهـ(٢).

لم يأبه بأبهة الحكم والسلطان ولم يتقاض راتبا من بيت المال المسلمين وإنما كان يأكل ويلبس هو وأهله من ماله الخاص ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في غرفة في قلعة قد اشتراه من ماله، يحل فيها عندما يعود من ساحة الجهاد.

(١) انظر: الكامل (١١/٤٠٣).
(٢) انظر: البداية والنهاية (١٦/٤٨٢).

كان رحمه الله لا يبتسم ، وروى أبو شامة قائلاً :

"أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج"(١) .

ذلكم هو البطل التركماني الشهم نور الدين محمود بن عماد الدين بن آق سنقر زنكي .فكان هذا الشبل من ذاك الاسد.

قبل ان نسافر معا في رحلة الى بطون التاريخ لنقتطف الازهار ونزيل الاشواك عن سيرة هذا البطل التركماني العظيم، نود ان نوضح بأننا لا نبغي اعتماد التفسير الأحادي للتاريخ في سيرة الأبطال والقادة الذين كتبنا وسنكتب عنهم . ولا ننظر الى سيرتهم من منظار عرقي ضيق او الدافع الاقتصادي أو المذهبي او محاولة طمس حقوق الآخرين ... الخ.

إنما هدفنا هو البحث عن تلاحم القائد البطل مع المبادىء الإسلامية التي كانت محور حركته وتفسيره للوقائع ونظرته الى المحتلين الغزاة، ودور القائد او البطل في استنهاض الهمم و وضع كل القوى المؤمنة الفاعلة في المنظور الاسلامي للتوحد واحداث التغيير في النفوس وتهيأتها لتحرير الارض والمقدسات.

إن اتباعنا للمنهج التأريخ الفردي الذي يركز على شخص القائد وجهوده في مواجهة التشرذم والتناحر من جهة و التحدي الصليبي الاحتلالي من جهة أخرى هو ليس تمجيد الفرد، حتى وان كان يستحق ذلك بجدارة وامتياز، لأننا نؤمن ما من أمة تنهض ويكون لها مكان تحت الشمس ما لم يظهر قائد يأخذ على عاتقه تجيير المرحلة التاريخية لصالح الأمة ونهوضها ورفعتها .

ولا يخفى على القارئ الكريم أهمية وضرورة القائد المحرك للهمم والذي يضع الأسس الصحيحة لنهضة الأمة وأعدادها للنضال والجهاد من اجل الوحدة والتحرير .وكما يقول المؤرخون إن التاريخ يبقى يدور في فلك" الأشخاص " العباقرة لا في فلك" الأفكار الصحيحة . وكيف إذا كانت العباقرة يدورون في فلك الأفكار الصحيحة، فعند ذلك تحدث المعجزة كما حدثت عند تحرير بيت المقدس .

ولهذا تعمدنا البدء بالكتابة عن المغوار عماد الدين زنكي وابنه الشهيد نور الدين محمود زنكي لأنهما هما اللذان وضعا استراتيجية تحرير بيت المقدس . وسار على نهجهم القائد الكردي البطل صلاح الدين الأيوبي الذي تعلم وتهذب واحترف العسكرية في مدرسة نور الدين محمود وان معظم قواد جيش صلاح الدين ومقاتليه عند فتح بيت المقدس كانوا من الفرسان التركمان الصناديد الذين صقلتهم مبادئ الإسلام الحنيف وهذبت شجاعتهم وفروسيتهم المتجذرة فيهم، فاندفعوا للجهاد تحت راية الإسلام لتحرير ارض العرب والمسلمين المقدسة دون

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (١٤٣/٢)، البداية والنهاية (٣٢٤/١٢).

أي التفات إلى العرق أو القومية أو المذهب إذ كان يضم جيش نور الدين المسلمين السنة والشيعة التركمان والعرب والأكراد .

فمن هنا تنبع أهمية القائد المحنك الذي يجمع ولا يفرق.

أكرم الله نور الدين بذكر مجيد وسيرة عطرة ولم يقطف من هذه الدنيا سوى ثمانية وخمسين عامًا، فقد ولد الفارس التركماني الزاهد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد ١٧ من شهر شوال سنة ٥١١ للهجرة،الموافق ١١ شباط، فبراير ١١١٨ للميلاد ومات يوم الأربعاء ١١ من شوال سنة ٥٦٩ للهجرة .

مكث منها في الملك ٢٨ عامًا .وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكي بعد سيف الدين غازي .وبعد وفاة عماد الدين زنكي اقتسم ولداه حسب تقاليد ذلك الزمان ملك أبيهم :فاستقر سيف الدين غازي[1] على ولاية الموصل وتولى نور الدين محمود حكم حلب .وقد كان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين.

اشتهر سيف الدين غازي بالسياسة والأناة، على حين كان نور الدين الذي ذاع صيته محاربا فارسا مجاهدا جياش العاطفة صادق الإيمان، ميالا إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديارهم ، مفطورا على الرقة ورهافة الشعور؛ وهو ما جذب الناس إليه والتفوا حوله، وحبب القلوب فيه . وواصل سياسة أبيه الجهادية.

وتلكم بعض الخصال التي جعلت نور الدين محمود ينجح خلال مدة حكمه في تحرير معظم بلاد الشام من الاحتلال الصليبي، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من تحرير بيت المقدس :

أولاً : كان قائدًا ربانيًا:

عرف بتقواه وورعه، فقد كان حريصًا على أداء السنن، وقيام الليل بالأسحار، فكان ينام بعد صلاة العشاء، ثم يستيقظ في منتصف الليل، فيصلي ويبتهل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر، كما كان كثير الصيام، وتميز بفقهه وعلمه الواسع، فلقد تشبه بالعلماء، واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالمًا بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث، وألف كتابًا عن الجهاد، يصفه ابن كثير فيقول:

"ولم يُسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتًا وقورًا... ومجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين والمشورة في الجهاد".

---

(١) قال ابن كثير: "كان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وأجودهم سريرة، وأصبحهم صورة، شجاعًا كريمًا، يذبح كل يوم لجيشه مائة من الغنم، ولمماليكه ثلاثين رأسًا، وفي يوم العيد ألف رأس سوى البقر والدجاج، وهو أول من حُمِل على رأسه سنجق من ملوك الأطراف، وأمر الجند أن لا يركبوا إلا بسيف ودبوس، وبني مدرسة بالموصل، ورباطًا للصوفية، وامتدحه الحيص بيص فأعطاه ألف دينار عينًا، وخِلْعة. ولما توفي بالحمى في جمادى الآخرة من هذه السنة ـ٥٤١- دُفن في مدرسته المذكورة، وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة ملكه بعد أبيه ثلاث سنين وخمسين يومًا، رحمه الله". البداية والنهاية (٣٥٧/١٦)، وانظر: الكامل (١٣٨/١١)، وفيات الأعيان (٣/٤)، سير أعلام النبلاء (١٩٢/٢٠)، شذرات الذهب (١٣٩/٤).

ويثني عليه ابن الأثير فيقول:

"طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين".

ثانيًا :كان زاهدًا أمينًا:

فقد كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا، وعندما شكت له زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص، وقال: "ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك"(١).

ثالثًا :كان متواضعًا محبوبًا:

قال له الفقيه قطب الدين النيسابوري يومًا: "بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى أحد من المسلمين إلا أخذه السيف، فقال له نور الدين: يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو"(٢).

وبعدما كثرت فتوحاته، واتسعت دائرة سلطانه، جاءه تشريف من الخلافة العباسية تضمن قائمة طويلة جليلة بالألقاب التي يُذكر بها عندما يدعى له على منابر بغداد، ليعممها على بقية البلدان، فأوقفها، واكتفى بدعاء واحد هو: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

ورفع أحد أفراد رعيته قضية عليه، فاستدعاه القاضي، فقال: السمع والطاعة.. [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا... ﴿٥١﴾] (النور:٥١)، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع. وفي مرة أخرى دُعي للقضاء فاستجاب، ولما ثبت أن الحق مع نور الدين، وهب لخصمه ما ادعاه عليه.

(١) تاريخ الإسلام (٣٧٧/٣٧).

(٢) مرآة الزمان (١٩٤/٨).

رابعًا :كان حريصًا على تطبيق أحكام الشرع:

وأشهى شيء عنده كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها، وقد ألغى جميع الضرائب التي تزيد عن الحد الشرعي، بالرغم من الدخل الكبير التي تدره، والحاجة الماسة إليه لأغراض الجهاد، وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق، أفلا نحفظ الدين ونمنع ما يناقضه"[1].

خامسًا :كان يُكرم العلماء، ويبالغ في ذلك:

فبالرغم من أن الأمراء والقادة كانوا لا يجرءون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه، فإنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه، أو الرجل الصالح، قام هو إليه، وأجلسه، وأقبل عليه مظهرًا كل احترام وتوقير، وكان يقول عن العلماء: "هم جند الله، وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا"[2].

ويُروى أنه لما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه للجهاد وإنفاقه عليه قال له بعضهم: "إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك".

وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟!"

وكان يسمع نصيحتهم ويجلها ويقول: "إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له ويرق قلبي"[3].

وكانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية.

سادسًا: كان مهتمًا بأحوال المسلمين:

فلقد عمل على كفالة الأيتام وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة.

سابعًا: كان أبيًا عزيزًا شهمًا شجاعًا:

يغار على حرمات المسلمين، ولا يهدأ له بال حتى ينصرهم وينتقم لهم، فلم يكد يمر شهر على استلامه الحكم حتى هاجم الصليبيون الرها ظنًا منهم أن الحاكم الجديد ضعيف، فهاجمهم وقتل ثلاثة أرباع جيشهم.

---

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (صـ١٧٣).
(٢) الروضتين (٢٣/١).
(٣) تاريخ الإسلام (٢٧٢/٤٠).

وفي سنة ٥٥٨هـ هاجم الصليبيون جزءًا من جيشه على حين غفلة، فأكثروا فيهم القتل، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، وقد عرفت هذه المعركة بـ(البقيعة)، فقال: "والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام"، وعرض الصليبيون عليه الصلح فرفض، وكان انتقامه منهم رهيبًا في معركة حارم في ١١ أغسطس ١١٦٤م، إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان بين الأسرى عدد من كبار أمرائهم وقادتهم.

ثامنًا: كان لحوحًا في الدعاء:

ولا يرجو النصر إلا من الله، فعندما رأى جموع الصليبيين الهائلة قبيل معركة حارم، انفرد بنفسه تحت تل حارم وسجد لله ومرّغ وجهه وتضرع قائلاً: "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك".. "إيش فضول محمود في الوسط، مَن محمود الكلب حتى يُنصر؟!!" يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه.

ظهر نور الدين محمود زنكي في وقت كان عصيبا على المسلمين والناس في أشد الحاجة إلى مثله ليأخذ بيدهم في حلكة الظلام الدامس الذي اكتنف بلاد المسلمين في بلاد الشام، منذ أن وطئتها أقدام الغزاة الإفرنج الصليبيون، واحتلوا القدس الشريف.

وقد استطاع أباه المرحوم عماد الدين أن يباشر في توحيد المسلمين ويهيئ لهم ما استطاع من قوة ورباط الخيل وتضييق فجوة الخلاف والتناحر بين أمراء المسلمين.

نجح المغوار بقدرته وكفاءته العسكرية والإدارية العالية من فتح مدينة الرها سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م، الذي كان بمثابة ضربة قوية للكيان الصليبي المحتل؛ لأن الرها كانت أولى الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، ولم يمهل القدر عماد الدين لكي يواصل تحرير الأراضي المحتلة،حيث اغتالته يد الغدر في ٦ من ربيع الثاني ٥٤١ هـ = ١٤ من أيلول، سبتمبر ١١٤٧ م.

وكما تحدثنا عن عماد الدين زنكي .لم تسقط الراية الجهادية، بل حملها يد مؤمنة جبل على حب الجهاد وسار سيرة أبيه بل رفع رأس أبيه وقومه عاليا وتبوءه بامتياز مكانة مرموقة في سجل التاريخ.

وأحتضن نور الدين محمود زنكي التركماني ومنحه اشرف صفحاته وخلده كأعظم القادة المسلمين الأبطال وكاد أن يسمى الخليفة الراشد السادس لورعه وزهده وعدله وفروسيته وشجاعته.

يقول الإمام ابن عساكر[١]:

"بلغني أنه- نور الدين محمود- في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، شديد الانكماش، حسن الرمي بالسهام، صليب الضرب عند ضيق المقام، يقدم أصحابه عند الكرة، ويحمي منهزمهم عند الفرة، ويتعرض بجهده للشهادة لما يرجو بها من كمال السعادة".

وعن شجاعته وأقدامه قال ابن الأثير[٢]:

"وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأيًا، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون : إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل".

كان نور الدين رحمه الله إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين، وباشر القتال بنفسه، وينادي بأعلى صوته الله أكبر حي على الجهاد ويندفع نحو العدو كالغضنفر الهصور.

وعن زهده يقول سبط ابن الجوزي:

"كان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط"[٣].

استهل نور الدين حكمه بالقيام ببعض الهجمات على إمارة إنطاكية الصليبية، واستولى على عدة قلاع في شمال الشام، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة الرها التي فتحها أبوه عماد الدين زنكي وكانت هزيمة الصليبيين في الرها أشد من هزيمتهم الأولى.

وكان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمال العراق والشام وكسب ودها وصداقتها لمواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع "معين الدين أنر" حاكم دمشق سنة ٥٤١ هـ= ١١٤٧ م وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف لم يجد غير نور الدين يستجير به، فخرج إليه، وسارا معا واستوليا على بصرى وصرخند قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة إنطاكية، واستولى على أرتاح وكفر لاثا وبصرفوت.

وعلى أثر ذلك ملك الرعب قلوب الغزاة من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته،وكانت سنه إذ ذاك تسعا وعشرين سنة، لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيرا كثيرا.

وفي سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام بقيادة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها وتعرضت

(١) تاريخ دمشق (١٢٠/٥٧). (٢) الكامل (٤٠٣/١١). (٣) مرآة الزمان (٣١٥/٨).

لخسائر هائلة، وعجزت عن احتلال دمشق، ويرجع الفضل في ذلك لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في فشل تلك الحملة .

استغل نور الدين هذه النكبة التي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم، للهجوم على إنطاكية بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجمها في سنة ٥٤٤ هـ =١١٤٩ م الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب إنطاكية لنجدتها، والتقى الفريقان في ٢١ من صفر ٥٤٤ هـ= آخر حزيران يونيو ١١٤٩ م ونجح المسلمون في تحقيق النصر وأبادوا الصليبيين عن آخرهم، وكان من جملة القتلى صاحب إنطاكية وغيره من قادة الفرنج وكان فرح المسلمون بهذا النصر عظيما.

نجح نور الدين في ضم دمشق إلى دولته في سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م وكانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث توحدت بلاد الشام تحت زعامة القائد التركماني نور الدين محمود زنكي: من الرها شمالا حتى حوران جنوبا، ولأول مرة منذ الغزو الصليبي أحدث الفارس القائد التوازن العسكري بين الجبهة الإسلامية وبين الجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم، وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ= ١١٥٣ م لأن دمشق كانت تقف حائلا دون تحقيق ذلك.

قاد هذا النجاح الكبير إلى تحقيق المرحلة الأولى من توحيد الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وقلصت أمامهم إمكانيات الغزو والتوسع إلا عن طريق الجنوب .

ولتنفيذ استراتيجيته العسكرية لفتح بيت المقدس،توجه أولا إلى أحكام سيطرته على شمالي العراق والشام كاملة وفي المقدمة منها دمشق بوابة القدس الشريف .

وعندما استشرف الصليبيون خطة نور الدين تطلعوا إلى مصر باعتبارها الميدان الجديد لتوسعهم،وشجعهم على ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر كانت تعاني سكرات الموت فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذانا بمحاولتهم غزو مصر، وتحولت نياتهم إلى عزم حيث قام "بلدوين الثالث" ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م محتجا بعدم التزام الفاطميين بدفع الجزية له، غير أن حملته فشلت وأجبر على الانسحاب بفضل صمود المقاتلين المسلمين.

أثارت هذه الخطوة الخطيرة مخاوف نور الدين، فأسرع إلى شن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن الاستعداد لغزو مصر ويضعفهم، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر، فأرسل عدة حملات إليها تحت قيادة "أسد الدين شيركوه" وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي اللذان كانا من قواد جيش نور الدين محمود زنكي .

ابتدأت جهود نور الدين وقواده للوصول إلى مصر، من سنة ٥٥٩ هـ =١١٦٤ م واستمرت نحو خمس سنوات حتى نجحت بعد سباق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة ٥٦٤ هـ= ١١٦٩ م وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة "العاضد" آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي.

نجح صلاح الدين الأيوبي في بسط الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط دولة الفاطميين؛ فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ = أيلول سبتمبر ١١٧١م .

كان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود دوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد للصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها ليقظة صلاح الدين الأيوبي في مصر.

وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى جبهة الكفاح يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات الجبهة الإسلامية تمهيداً للضربة القاضية لتحرير بيت المقدس وبلاد الشام من الاحتلال الصليبي، إلا أن المنية قد حال أمام تحقيق حلم هذا الفارس التركماني البطل في تحرير بيت المقدس إلا انه فتح الطريق واسعاً أمام المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لفتح بيت المقدس وطرد الغزاة الصليبيين من بلاد العرب والمسلمين،بعد وفاة القائد التركماني البطل الذي مهد مع والده الطريق لهذا الإنجاز الذي لا يزال التاريخ يتحدث عنه مبهورا.

لم يشغل نور الدين محمود مستلزمات الجهاد العسكري وتوحيد الصف الإسلامي وإنما بموازات ذلك فتح بابا الجهاد العلمي والثقافي التي هي من أهم مستلزمات التحرير.

صرف جهودا كبيرة في إقامة المدارس والمساجد حتى بلغت مدارسه ومساجده المئات، لا يخلو منها بلد دخل تحت سلطانه، وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيوخها، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وكانت مدارسهم تعني بالقرآن والحديث والعلوم، وكان له شغف بالحديث وسماعه من جلّة المحدثين، وأجازه بعضهم بالرواية.

وإلى جانب إنشاء المدارس توسع في إقامة البيمارستانات – المستشفيات – في كل بلدة تحت حكمه، وجعلها للفقراء مجانا والاستعانة بالأطباء والحصول على الدواء، كما حرص على إقامة الخانات على الطرق بين المدن ليترل بها المسافرون للراحة أو للمبيت، وجعل عليها من يحرصها ويحافظ على زائريها.

أما إنجازاته الاجتماعية فقد لخصها أبن عساكر في قوله[1]:

"وأدر علي الضعفاء والأيتام الصدقات، وتعهد ذوي الحاجة من أولي التعفف بالصلات، حتى وقف وقوفًا على المرضى والمجانين، وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة العميان، ومعلمي الخط والقرآن، وعلى ساكني الحرمين ومجاوري المسجدين، وأكرم أمير المدينة الحسين، وأحسن إليه، وأجرى عليه الضيافة لما قدم عليه وجهز معه عسكرًا لحفظ المدينة، وقام لهم بما يحتاجون إليه من المؤونة، وأقطع أمير مكة إقطاعًا سنيًا، وأعطى كلاً منهما ما يأكله هنيًا مريًا، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج بالنحس، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول، واستخراج العين التي بأحد وكانت قد دفنتها السيول، ودعي له بالحرمين، واشتهر صيته في الخافقين، وعمر الربط والخانقاهات والبيمارستانات ، وبنى الجسور في الطرق والخانات، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم وبقدر ما يكفيهم، وكذلك صنع

(١) تاريخ دمشق (١٢١/٥٧).

لما ملك سنجار وحران والرها والرقة ومنبج وشيزر وحماه وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلا وله فيه حسن أثر، وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها، وجدد كثيراً من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل".

الفصل الثالث

أهم صفات نور الدين زنكي

الفَصْلُ الثَّالِثُ

أهم صفات نور الدين زنكي

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله وباليوم الآخر وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها :

أولاً : الجدية والذكاء المتوقد :

منذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسّد أي فتق أو اعتداء من قِبل الأعداء : فلما قتل زنكي ٥٤١ هـ يقول ابن الأثير[١]- كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات : تل باشر[٢] وما جاورها فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجّد في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فساراً مجداً إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها فلم يبق منهم إلاّ القليل وأجلى من كان بها من الفرنج .

وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام ٥٣٩هـ وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية أما وقد تآمروا – ثانية – في أخريات عهد زنكي، وثالثة بعد مقتله لإعادة الرها إلى السيطرة الصليبية منها يجئ الرد بمستوى الجّد الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة .

وفي عام ٥٦٧هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملؤين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته كما يقول ابن الأثر إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا،

(١) الباهر (صـ٨٦).

(٢) تل باشر: قلعة حصينة شمالي حلب.

والعزيمة شمالي، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة – كما يبدو – إلى هدنة كهذه.

ويوما بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح - الذي كان قد استولى عليه إحدى معاركه مع نور الدين - إلى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم : فقام نور الدين وقعد، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا أو أسراً، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فأخلد إلى إعمال الحيلة .

وكان نور الدين – كما يقول ابن الأثير[1] : إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء .

قال القيسراني يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من عره النهى والامر   فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن تنت الدنيا الييما عنانها   تصرف فيما شاء عن إدنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوه العلا   فلن تدرك الشعري مداه ولا الشعر
إدا الجد امسى دون عايته المنى   فمادا عسى ان يبلع النظم والنتر
ولم لا يلي اسنى الممالك مالك   زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا ان كرسي ملكها   حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وانك نور الدين، مد زرت ارضها   سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت، فلم يحجبك عنها وليها   وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حوريه السنا   عليها من الفردوس ارديه خضر
خلوب، اكنت من هواك محبه   نمت فانمت جهرا، وسر الهوى جهر
فسقت إليها الامن والعدل نحله   فامست ولا اسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمناك من بد هجرها   فاحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت   دلالا، وإن عز الحيا وعلا المهر
ولكن إدا ما فستها بصداقها   فليس له قدر وليس لها قدر
هي التعر امسى بالكراديس عابسا   واصبح عن باب الفراديس يفتر
على انها لو لم تجبك إنابه   لارهقها من باسك الخوف والدعر
فإما وقفت الخيل نافعه الصدى   على بردى من فوقها الورق النضر

(١) الباهر (صـ١٠٣).

فمن بعد ما اوردتها حومه الوعى واصدرتها والبيض من علقٍ حمر

وجللتها نفعا اضاع شِياتها فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر

علا النهر لما كاثر القصب القنا مكاثره في كل نحرٍ لها نحر

وقد شرقت اجرافه بدم العدا إلى الع جرى العاصي وضحضاحه عمر

صدعتهم صدع الزجاجه لا يد لجابرها، ما كل كسر له جبر

فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل فمن بارز الإبرنز كان له الفخر

ومن بز انطاكيه من مليكها اطاعته الحاظ المؤلله الخزر

اخو الليث لولا غدره، نزعت به إلى الذئب ان الذئب شيمته الغدر

اتي راسه ركضا وغودر شِلوه وليس سوى عافي النسور له قبر

وقد كان في استبقائه لك منه هي الفتك لو لم تعضب البيض والسمر

كما اهدت الاقدار للقمص اسره واسعد قِرنٍ من حواه لك الاسر

طغى وبغى عدوا على علوائه فاوبقه الكفران عدواه والكفر

والقت بايديها إليك حصونه ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر

وامست عزاز كاسمها بك عزه تشق على النسرين لم انها الوكر

فسِر، واملا الدنيا ضياء وبهجه فبالافق الداجي إلى ذا السنا فقر

كاني بهذا العزم، لا فل حده واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر

وقد اصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جارى الدماء له طهر

وقد ادت البيض الحداد فروضها فلا عهده في عنق سيف ولا نذر

وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر

وإن يتيمم ساحل البحر مالكا فلا عجب ان يملك الساحل البحر

سللت سيوفا اثكلت كل بلده بصاحبها،حتى تخوفك البدر

إذا سار نور الدين في عزماته فقولا لليل الإفك: قد طلع الفجر

ولم لم يسِر في عسكر من جنوده لكان له من نفسه عسكر مجر

مليك سمت ثم المنابر باسه كما زهيت تِيها به الانجم الزهر

فيا كعبه ما زال في عرصاتها مواسم حج لا يروعها النفر

خلعت على الايام من حلل العلا ملابس من اعلامها الحمد والشكر

وتوجت ثغر الشام منك جلاله تمنت لها بغداد انها ثغر

فلا تفتخر مصر علينا بنيلها فيمناك نيل، كل مصر بها مصر

رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ويا طالما امسى ومسلكه وعر

واطمعت في الإفرنج من كان باسه تخوف ان يعتاده منهم فكر

واقحمت جرد الخيل اعلى حصونها ولولاك لم يهجم على كافر كفر

ومن يدعى في فتلك الشرك شركه إذا لم يكن عند القوافي له ذكر

هـي الفاتنات الحافظات فروجها   فشاهدها عدل وراتقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها   سوى انها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيه وقائعه أولها:

اما وخيال زار ممن احبه   لقد هاج من ذكراه مالا اعبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا   ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشام، رفقا بمهجه   يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسالن الصب اين فؤاده   فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم   عداه استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمى، كانها سنا   بثغر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما سما في مبهم الخطب وجهه   تمزق عن بدر الدجنه حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى   مناقبه اي الثلاثه تربه
يعد مضاء في الظبا، لا، وضربه   بها فل للاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا،ارضى الزمان بنفسه   إلى الان، حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبه الإسلام بالخيل، فاعتدت   واوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوه اوقعن بالكفر تحتها   فما انقشعت إلا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع   ملى برعي الهندوانى خصبه
وشهباء هاجتها وعى صرخديه   تناها وليل الحرب تنفضن شهبه
وعارم يوما بالعريمه فاعتدت   كوادي ثمود إذ رعا فيه سقبه
وعاصي على العاصي بارعن خاطب   دم الإفك حتى انكح النصل خطبه
بإنب لما اكسب المال واقتنى   يصاحب انطاكيه وهو كسبه
عداه هوى شطرين: للسيف راسه   وللرمح حتى توج الراس قلبه
على حين النصر للخطى فيه عوامل   يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محموديه النصر لم تزل   غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده   ويفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمه من قرابه   مضى وهو نصل، والمالك قربه
إلى ان دعته ربها كل بلده   فليس من الامصار ما لا يربه.
ولما نزا بالقمص عجب، هوى به   على ام راس البغى والعدر عجبه
فاصبح في الحجلين ينكر خطوه   بعيد على الرجلين في السعي قربه

تعاقبه البشرى باخذ حصونه فياغانيا ضرب البشائر ضربه

تناجي عزاز باسمه ثل باشر فيلغنه لعن الصريح وسبه

فإن يكن المقهور من ثل عرشه فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه

فقل لملوك الخافقين نصيحه كذا عن طريق الليث يزار غلبه

وخلوا عن الافاق، فالشرق شرقه بحكم الردينتات، والغرب غربه

ولا يعتصم بالدرب طاع على القنا فإن القنا في ثغره النحر دربه

رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره إذا ضاق من صدر المملك رحبه

عفو عن الجاني، يكاد الذي جنى يكر به شوقا إلى العفو ذنبه

امتخد الإخلاص الله جنه ومن يعتصم بالله فالله حسبه

ابوك استرد الشام بالسيف عنوه وللروم باس طالما عال خطبه

إذا ذب عن اضعات دنياه مالك فانت الذي عن حوزه الدين ذبه

رايت اتباع الحق خيرا مغبه فافرجت عن راى يسرك غِبه

واوضحت ما بين الفريقين سنه بها عرف المربوب من هو ربه

وبينت ما قد كان من كان يبتغي دليلا بان الله من.انت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهات يعصم من اردت حِذار اني، ومن اوهاقك الاقدار

طلعت عيك بجوسلين دريعه لا سحل انشاها ولا إمرار

وسعاده مازلت تمرى خلفها فيثف، وهو الناتق المدرار

فارتك مايجنى الوفى وفاؤه وارته كيف يحين الغدار

عود امر على ابارك طلعه فاحيل ذاك البر وهو بوار

مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا والله يهدم مابنى الكفار

حتى اتاح لقومه ما جره لثمود من عقر الفصيل قدار

اسرى فاصبح في براثن اسرٍ مازال يدمى ظفره الاظفار

سام، كقرن الشمس، يقبس نوره وتغض عون محله الابصار

يهب التلاد من البلاد وما حوت إن السماحه للبحار بحار

يقظان، يخشى الله في خلواته لا متــرف لاه، ولا جبار

نصب المراقب العواقب ناظرا   فيها، كذلك تربا الابرار

لا كالذين تعجلوا حسواتها   وتفلسوها بعد وهي خسار

درجوا وادرج في ملف رفاتهم   سوءى تساء لذكرها الاثار

والمرء من يطوى فينشر طيه   ما اودعته صدورها الاخيار

قل للاولى ناموا على ناماته   ما كل هبه بارخ إعصار

لا تامنوا في الله بطشه تاثر   لله، ملء سريره اسرار

صاف إذا كدر المعادن، عادل   إن خاف حكام الملوك وجاروا

اعلى ابو له النجاد، وشيد في   صهواتها مما ابتناه منار

محمود المحمود اثارا إذا   نظمت على جيد الدجى الاسمار

دانت له الايام صاعره،كما   دانت له في ظله الامصار

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ. بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس – وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمَة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷺ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء ﷺ على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبربذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان كما يقول ابن الأثير : يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول : فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول : إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينه وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها – إذا أراد – فينال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيتفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى أعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد.

وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لإشغالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة : إن أهل دمشق، أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما.

ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً : أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس فإن ذلك مما يفت في عضد الكفار ويدخل

الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور – الوزير المصيري – الإذن بالانفصال، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصني المنبطرة بالشام ٥٦١هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه في سّريه من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه يجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن : ولم يجتمع لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه، فهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

ثانياً : الشعور بالمسؤولية :

تولد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية[1] في رسالة نور الدين محمود إل إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمذان والري، جوابا على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل ويتهدده بأن لا سبيل له إليها قال نور الدين للرسول : قل لصاحبك : أنا أرحم ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك، فلم، تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس : الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين[2].

كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع . فحينما علم في عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م بتحالف الصليبيين قال : لا أنحرف عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضيّاع ويحسن الرأي في الفلاحين ويعمل على التخفيف عنهم الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له النصر.

وكتب إلى زعماء دمشق : إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين ... بأن الفلاحين

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة (صـ١٣٢).
(٢) زبدة الحلب (٣٣٢/٢).

أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم : فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا مالا يرضى الله تعالى ولا أحداً من المسلمين.

وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، وانتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه.

وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين وقال : لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين هو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدوّ .. معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء ... ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول أبو شامة : إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها. لقد كان الدم عنده عظيما، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل.

ثالثاً : قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث :

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث واضعاً عينية على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب ففي عام ٥٥٢هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية فخربت الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر على ساعد الجدّ وبذل جهوداً عظيمة في إعادة أعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته : فعادت البلاد كأحسن مما كانت ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال، ولا حصار وفي عام ٥٦٥هـ ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً على سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحّد والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة أعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله فقط أو أنه إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهليها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ومنها إلى حماه فبعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً.

ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال مالاً يقدر قدره.

إن الكوارث – التي يبتلي الله بها عباده – تجئ بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم والتجارب السياسية والحضارات، خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد أعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق .

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال : كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا : من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة .

وعلق الدكتور عماد الدين صاحب كتاب "نور الدين محمود الرجل والتجربة " على هذه الحادثة فقال : لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافة.

ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين .

رابعاً : نزعته للبناء والأعمار :

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن ، فقد بنى نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح.

كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجعَّ أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقَّ الطرقات العامة فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية ، ولم يغفل نور الدين – وهو بصدد البناء والإعمار – عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع .. ورجل كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة ، فقد أوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها

لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدّد مصارف وقفه المذكور : نصفه على تطبيق جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها.

وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفاحية، مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام ، ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩هـ أنشأ بها داراً عامة : في غاية الحسن سماها دار المسّرة، وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميدانا " خضّره بالحشيش " وسمي الميدان (الميدان الأخضر)، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام ٥٥٢هـ حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام.

لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته – إذا صح التعبير – مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي.

وتبدو نزعة نور الدين للأعمار والتحضر، أكثر ما تبدو، في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج، ونقل أعرب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن هذه الخطوة أنصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم كما إشارة الرواية المذكورة ، إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً ، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين.

ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه لأن تغييرات جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق : وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق (ما يقرب من) مائة حّمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة .. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً ، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موضفيه . فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية وما أكثر

الروايات التي قيلت في هذا الصدد ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك.

خامساً : قوة الشخصية :

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة ، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان : مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف، رفيقاً في غير ضعف ويصف مجلسه فيقول : وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعّدى هذا ..

وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي : كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا .

وقال ابن كثير : لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتا وقوراً.

وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة : ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب ... وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا .

سادساً : محبة المسلمين له :

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٢هـ قال : وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه ثم عوفي فرج المسلمون بذلك فرحاً شديداً .

وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة : وفيها كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشّبحة في رجله فنزل رجل كردي فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه .

وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق وما أبلغ تعبير ابن كثير : مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن، ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر ليناموا ويتعب ليستريحوا وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله – نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً.

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلّ شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيماً بين أبناء أمته وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقرأها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمُنذ عام ٥٤٣هـ حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق : شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه ، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً وأخذ يخرج إليه خلال المراحل التالية من الحصار – عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا : فما خاب قصده كما يقول ابن القلانسي ، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمى كدحهم من تخريب الصليبيين ، وفي عام ٥٤٧هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث ، للخروج إلى قتاله. لم يخرج إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج.

وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين. وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا : يدعون ليلاً نهاراً أن يبذلهم الله سبحانه بالملك نور الدين، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم : وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم .

وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا – بتوفيق الله – ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منذ سنوات وسنوات : يقال أن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين وبعد أقل من ثلاث سنين، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق وتبع نور الدين في حملته تلك : فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير.

وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع طلب نور الدين عام ٥٥٩هـ نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر، بالتجهز للغزاة فقال له أولئك : فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها ؟ فقال : "إن نور الدين قد سلك معي طريقاً

إن لم انجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي" فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنوني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته ثم تجهز هو "أيضاً" وسار إلى نور الدين بنفسه.

إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكام والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا فإن بمقدور القواعد، الأكثر ثقلاً وتأثيراً يومذاك أن ترغمهم على الطاعة وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد ، وما من شك في أن انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفاً مخلصاً من أجل الأهداف الكبيرة .. وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته .

سابعاً : اللياقة البدنية العالية :

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسداً قوياً قادراً على تحمل الأعباء والمشقات ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه بما يتعلق بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعاً بلعبة الكرة أو الصولجة التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو ، ويصفه ابن الأثير بقوله : من أحسن لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب ، وعندما احتجّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه لأنه يلهو ويعذب الخيل لغير فائدة دينية : قال والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسير إسلامياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزهاد عندما كتب له ، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشف وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين ولأجسام

خيولهم، وإشغال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنود والقادة وفي هذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الدين الرياضية في أعلى درجاتها، فهو يخاطب الزاهد حسب مستواه من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمت أو التعصب ، وبهذا الموقف يبين لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشمولي الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي .

وفي كلام معاذ ﷺ دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله.

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكسه على جنوده وشعبه ودولته والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾] (الذاريات: ٥٦) وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حقق انجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية.

قال ابن الأثير : في حديثه عن نور الدين محمود : وكان – رحمه الله – لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرناها آنفاً.

ثم علق ابن الأثير : بعد نهاية القصة فقال : فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجئ إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات يقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين.

والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى : [قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾] (الأنعام : ١٦٢).

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح.

وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده وكان يمارس ألعاب أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق وكان رحلات الصيد الممتعة من رياضته الأخرى، تحمل من الجّد جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي. قال : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا.

وليس مهارات الصيد – في نظر نور الدين محمود زنكي – سوى محاولة، من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان وحكى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ورددت الأناشيد وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي القبق، كما يقول العماد الأصفهاني .. فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل.

ثامناً : تجرده وزهده الكبير :

فهم نور الدين محمود زنكي ﷺ من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة، ولذلك تحَّررَ من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً، ومن هذه الحقائق :

* اليـقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ : كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل .

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العّزة إلا ما كان منها طاعة لله – تبارك وتعالى – إذ يقول النبي ﷺ : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ، ألا إن الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه أو عالماً أو متعلّماً .

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السّبابة والوسطى .

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون: [يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝] (غافر : ٣٩- ٤٠).

كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع رحمه الله عن الدّنيا وحطامها، وزهد فيهما وإليك شيئاً من مواقفه:

١- قال ابن الأثير[١] : وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي ابن الشكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله معه انبساط، قال : كنت معه في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي قلت : لا، قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت : رضي الله عن مَلِك يفكر في مثل هذا وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما :

مَثَلُ الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك

انت لا تدركه متبعاً ... وإذا وليّت عنه تبعك

٢- تشبه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده وقد كان الأخير حاكم لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين فيأخذ ما يفتونه بحله ولم يتعداه إلى غيره البتة[٢].

قال العماد الأصفهاني : كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس ، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر .

٣- وأما ما يهدي إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة .

(١) عيون الروضتين (١/٢٦١).
(٢) الكواكب الدرية في السيرة النورية (صـ٥٣).

٤- ولم يلبس قط ما حّرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، وحكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها فقيل له : إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له، فقال : أعطوها له فإني أرجو أن أعّوض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر .

٥- قال رضيع الخاتون " زوجة نور الدين " : إنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية)؟ فلما قلت له ذلك تنكر واحمّر وجهه ثم قال : من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كان تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصده لمصالحهم ومعدّة لفتق – إن كان – من عّدو الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً .

٦- قال ابن كثير : كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا. وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه . وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمّد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط .

* وأما مقر سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتا من الأخشاب : فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب .

٧- زهده في الألقاب : عندما تفقد قيادة ما القدرة على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وإنكماشها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفاً أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف، وخوفاً أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون وأما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسيه ومعها "قائمة" بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد: ... اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة

وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، وشمس المعاني وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين. لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحد يقول : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي ، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضع وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه .. روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني – بعد أن استفزته كثرة الألقاب – بأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر : اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين : هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل ؟ والتفت إلى وزيره قائلاً : الذي كتبت به جيد : اكتب به نسخاً إلى البلاد. ثم أضاف ثم يبدءون بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً اللهم أسعده اللهم انصره، اللهم وفّقه .. من هذا الجنس .

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح النفاق والتزلف للمسؤولين لئن ذلك يوفر النقد البنّاء وحرية الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين، زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده فقال :

يغشى الوغى افرس فرسانها وفي التقى ازهد زُهّادها

ويقول أيضاً :

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الاموال زهد

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول :

لازلت تقفو الصالحين مسابقاً لهُم وتَطلَعُ خلفك الابرار

نفس السيادة زهد مثلك في الذي فيه تفانت يَعْرُبُ ونزار

تاسعاً : شجاعته :

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه ٥٢١/٥٤١هـ ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة.

وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله : وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب يقدم أصحابه عند الكرة ويحمي منهزمهم عند الفرّة[١].

وعندما فأجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام ٥٥٨هـ /١١٦٣م ولم يتمكن هو ومن كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حمص مسافة اثنتي عشر كيلو متراً وتوقف حتى تجمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيام والسلاح والمؤن من حمص وحلب وأقام معسكره في نفس المكان، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه : إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلوا أم كثروا والله لا أستظل بجدار حتى أخذ بثأر الإسلام وثأري ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبر نور الدين بقسمه[٢].

وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويتغلب عليها، يقول ابن القيسراني :

من باتت الاسد اسرى في سلاسله ... هل ياسر الغلب إلا من له الغلب

ويقول أيضاً :

انت حيناً تقاس بالاسد الورد ... وحيناً تُعدّ في الاولياء

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته يقول العماد في مدحه :

يا غالب الغلب الملوك وصائد ... الصيّد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من اربابها ... حزت الفخار على ذوي التيجان

وقال ابن قسيم الحموي :

---

(١) الباهر (صـ١٦٨).
(١) الباهر (صـ١١٧)، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة (صـ١٢٥، ١٢٦).

تبدو الشجاعة من طلاقه وجهه كالرمح دلّ على القساوة ليئُهُ
ووراء يقظته اناة مُجرّب لله سطوة باسه وسُكونه

وقال ابن منير :
ملا البلاد مواهباً ومهابة حتى استرقت ايه احرارها

وقال أيضاً :
متهللٌ والموت في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه

عاشراً : مفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه :

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نواقضه وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا :

قال له قطب الدين النيسابوري – الفقيه الشافعي – مرة : بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم- فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد ، فقال نور الدين : يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو فبكى من كان حاضراً[1].

وهذا الذي قاله نور الدين رحمه الله يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن وما الناس، ابتداء من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات "فاعلة" في يده يحرّكها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون الله عز وجل وكفى[2].

هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء[3].

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة .. كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً وتصفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقياً .. فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرّغ وجهه وتضرع وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيش فضول محمود في الوسط ؟ يقول أبو شامة : يشير نور الدين هنا إلى أنك يارب

(١) الباهر (صـ١٦٩)، الكواكب الدرية (صـ٣٠).
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٤).
(٣) السابق نفسه.
(٤) الروضتين (٣٧٧/١).

إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

وبلغني أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً من الكلب محمود .. حتى ينصر[٤].

وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمس مائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلّ يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجّالة المسلمين مع رجالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسرّه يقول : يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملَّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيَّابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به ونهيتني عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيّك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُّعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا عليه[١].

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائياً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله متبصر بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي – عب هذه الرؤية – هذا القائد أو ذاك[٢].

وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون : ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سؤله وما يَرُدّ يده خائبة، فيظفر علينا، فهذا كلام الكفار في حقه[٣].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر، ومهما أعد المسلمون من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساءوا استخدامه ، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٤).
(٢) عيون الروضتين (٢٥٥/١).
(٣) السابق نفسه.

والفقراء والفقهاء كذلك وكان مستوعباً لقول رسول الله ﷺ: هل تنصرون إلا بضعفائكم .

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين : مخ العبادة ، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ : الدعاء هو العبادة ، ومفتاح الرحمة ستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تتقطع بهم الأسباب .

أيها الأخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: [ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥] (الأعراف : ٥٥). وفي مثل قوله تعالى: [وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠] (غافر: ٦٠) وغالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً: [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦] (البقرة: ١٨٦).

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفقه الدعاء ومقدرته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضرعه وانكساره بين يدي المولى ﷻ.

الحادي عشر : محبته للجهاد والشهادة :

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور قال العماد الأصفهاني : حضرت عند نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين : إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها[1] . ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام ٥٦٦هـ فيسأله أصحابه : إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب : قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ؛ ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد[2] .

وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة : كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السِّباع وحواصل الطير[3] .

كانت عقيدة الشهادة تحركه وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت، فأسقطوا

(١) سنا البرق الشامي (صـ١٢٦). (٢) الباهر (صـ١٥٣).
(١) الروضتين (٣٥/١). (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٣١).
(٣) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة (صـ٩٥).
(٤) السابق (صـ٩٦).

الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها(٢).

إن الملك العادل نورالدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع مها قال تعالى: [...وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ... ﴿١٤٠﴾] (آل عمران: ١٤٠).

وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله ﷻ لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه(٣).

والثانية قوله تعالى: [وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾] (النساء: ٦٩).

هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة يقول الله عز وجل في هذه الآية: [وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ... ﴿٦٩﴾] (الزمر: ٦٩).

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم(٤).

قال تعالى: [وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾] (آل عمران: ١٦٩، ١٧٠). وقال تعالى: [وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾] (البقرة: ١٥٤).

وورد في السنة الثابتة(١) عن النبي ﷺ : إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم أطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ فعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا .

(١) في صحيح مسلم (كتاب الإمارة ١٥٠٢/٣).

(٢) الباهر (صـ١٦٤).

فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله – سبحانه وتعالى – فضل المجاهدين على القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفاً . ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر : عبادته :

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها ويحافظ على الجماعة وكان كثير الابتهال إلى الله عز وجل في أموره كلها . وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح .

وقال ابن الأثير : حدثني صديق لنا بدمشق – كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين – فقال: كان نور الدين يصلّي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاة إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[٣].

وقال ابن كثير[١]: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتا وقوراً كان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم إشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده.

وعبارة " فكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده " هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كان طبيعة تعبد نور الدين يدفعه إلى المسؤولية ويجعله في قلبها وهو أعمق وعياً وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذكاء[٢].

لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين قال تعالى: [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾] (النور : ٥٥، ٥٦).

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي : الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله

(١) البداية والنهاية (٤٨٢/١٦). (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٤٦).
(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ١٦١).

وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي : إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ[٢].

الثالث عشر : إنفاقه وكرمه :

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة قال العماد : وكلف نور الدين .. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى ..وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلات على قويم المنهاج قال : وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محله، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم وكان يرسم نفقته الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له وقوفاً[١].

قال : ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمره، ومشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيَّته تغني عن خيرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول[٢].

وأدرّ على الضعفاء والأيتام والصدقات حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلّمي الخط والقرآن وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجدين، وجهز عسكراً يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأحُدُ، وكانت قد دفنتها كثرة السيول، وعمّر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم، بقدر كفايتهم وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحّران والرقة، ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها[٢].

---

(١) عيون الروضتين (١/٣٤٦). (٢) السابق نفسه.
(١) السابق (١/٣٥١). (٢) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين (صـ١٧٠).

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير[٢]:

يايهـــا الملـــك المنـــادي جـــوده   في سائر الافاق : هل من معسر

ولانـت اكـرم مـن انـاس نوّهـوا   باســم ابـــن اوس واستخصـّــوا

ذلّـت لـدولتك الرقـاب ولا تـزل   إن تغـز تغـنم او تقاتـل تظفـر

كان نور الدين كما يصفه كثير من المؤرخين: قليل الابتهاج بالشعر لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل[٣].

إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية ولكن بتوجسّه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين كسلفه – لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سئل يحي بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين فأجاب في إحدى مقاماته : وهو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تجزى[٤].

وعبارة غير أنه ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة " أعطوه ألف دينا " أو عبارة سل ما شئت. ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت   لـه فكل على الخيرات منكمش

ايامـه مثـل شـهر الصـوم طـاهرة   مـن المعاصـي وفيهـا الجـوع والعطـش

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين : صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الإزدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول : ما كان – نور الدين – يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز – وهو من سادات التابعين في الشام – أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبّون وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في مدح نور الدين[١]:

فـي كـل عـام للبريـة ليلـة   فيهـا تَشُـبّ النـارُ بالإيقـاد

---

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٣٥، ١٣٦).

(٤) السابق (صـ١٣٧).

(١) نور الدين زنكي في الأدب العربي (صـ١٩٧).

(٢) أخبار الدولتين (٣٥٨/١).

لكن لنور الدين من دون الورى نـاران : نـار قـرى ونـار جهـاد
ابـداً يصـّـرفها نـداه وباسـه فالعـام اجمـع ليلـة المـيلاد
مَلِـك لـه فـي كـل جيـد منـة ابهـى مـن الاطـواق فـي الاجيـاد
اعلـى الملـوكِ يـداً وامـنعهم حمـيً وامـدهم كفـاً ببـذل تـلاد
يعطـي الجزيـل مـن النـوال تبرّعـا مـن غيـر مسـالة ولا ميعـاد
لا زال فـي سـعد وملـك دائـم مـا دامـت الـدنيا بغيـر نفـاذ

وعندما أسر الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه فلم يفعل قال أسامة : وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوية يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر[٢].

والملاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني وابن منير والعماد الأصفهاني وغيرهم ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسب أو توخى التزلف .

يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القسيراني بنور الدين ومدحه له : ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القسيراني لنور الدين، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعضِّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك[٣].

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا يبتهج بالمدح فهذا تواضع منه، لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول[٤].

فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع الشعر، بل كان يحب الشعر الملتزم فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال :

للغـزو نشـاطي، وإليـه طربـي مـالي فـي العيش غيـره مـن ارب

(١) صدى الغزو الصليبي (صـ١٥٩، ١٦٠). (٢) نور الدين في الأدب العربي (صـ١٩٧).
(٣) نور الدين الرجل والتجربة (صـ١٣٨). (٤) السابق (صـ١٣٩).

بالجـد وبالجهـاد نجـح الطلـب　　والراحـة مسـتودعة فـي التعـب

لا راحة في العيش سوى ان اغزو　　سـيفي طربـا إلـى العلـى يهتـز

فـي دل دوي الكفـر يكـون العـزّ　　والقـدرة فـي غيـر جهـاد عجـز

ويقول الأصفهاني في موضع آخر : كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألني : كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها[٣]:

عقـدت بنصـرك رايـة الإيمـان　　وبـدت لعصـرك ايـة الإحسـان

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني والعماد الأصفهاني وابن منير، وابن الدهان الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً[٤].

وأما ما تضمنه قول الوهراني، وقول ابن منقذ من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر مستبعد وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين، كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة بن منقذ نفسه، ولما اختصَّ بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة[١].

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين : حضر صبي وبكى عند نورالدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف – يعني وقف الجامع – فسأل عن حاله ؟ فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل : كم أجرة السنة ؟ قالوا : مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرقّ له وأنعم عليه وقال : نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنّ الإنعام كان في حقه[٢].

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رحمه الله قال فيه ابن عساكر[٣]: .. ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دقها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان متأت لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان، حريض على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتني لها بأوفر الأعواض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينينة، متتبع للآثار النبوية، مواظب على الصلوات في الجماعات، مراع لآدابها في الأوقات، مؤدياً فروضها ومسنوناتها، معظم لقدرها في جميع

---

(١) نور الدين في الأدب العربي (صـ١٩٨).　　(٢) عيون الروضتين (٣٥٧/١).
(٣) تاريخ دمشق (١٢٢/٦٠، ١٢٣).

حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مّر الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج متحّر في المطاعم والمشارب والملابس، متبرئ من التمادي، والتباهي والتنافس، عريٌ عن التجبر والتكبّر، بريئ من التنجيم والتطيَّر، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيرّه، ولقد حكي لي عنه من صحبه في حضره وسفر أنه لم تُسمع منه كلمة فحشي في رضاه ولا ضجره وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلي سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمه من دم في طلبهما ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسليمه من أهله بالأمان، ووفي لهم بالعهود والإيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان.

وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم الجرايات، وولى من كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطا وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد والشقاق .. إلى أن قال : فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويرجى الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية عليه، فقد ألقى أزمتنا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ذكرت منها غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلو القدرة، فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير على ما يشاء قدير .أ.هـ

الفصل الرابع

أهم معالـم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

الفصل الرابع

أهم معالـم التجديد والإصلاح
في دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدى به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامه أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد أقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وأثراء المشروع النهضوي وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها.

قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين.. علماً منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العقلاء يكمل الأجر ويبقى الذكر واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريره ويحسن السيرة وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء فقال عز من قائل: [أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ... ﴿٩٠﴾] (الأنعام : ٩٠) وقال تعالى: [وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ... ﴿١٢٠﴾] (هود : ١٢٠) فلذلك اشتد حرصه – أدم الله سعادته – على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة فحينئذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته واستنقاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ﷺ والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت إمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى[١].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وأهتم بالإدارة

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/١).

والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء يقول شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي : .. فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خِلَّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ﷺ في العدل والجهاد واجتهدا في إعزاز دين الله أي اجتهاد وهما ملِكا بلدتنا وسُلطانا خُطَّتنا خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على إفرد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجُةً عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فِلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسددَّ ..

هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عِيٍّ، وظهرت من خالقهما العناية .... والفضل للمتقدم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلةً، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعد له وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة... فما أحقهما بقول.

الشاعر :

والبس الله هاتيك العِظام وإن بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا

سقى ثرى اودِعَوه رحمة ملاتَ متوى قبورهم روحا وريحانا[1]

وإليك أخي أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته.

أولاً : الحرص على تطبيق الشريعة :

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية "براغماتية" لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدما صوب آفاقها الرحبة الشاملة إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث

(١) عيون الروضتين (١/٢٧، ٢٨).
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٦).
(٣) الباهر (صـ١٦٦).
(٤) البرق (صـ١٤٦).

المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية وكسب واحتراف وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى – فعلاً – إلى أن تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[٢].

قال : ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل.

وقال : نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها[٣].

وقال مخاصباً أحد ولاته : انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن، والمساوئ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة[٤].

وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه : والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله)، فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا ترين قصة مظلوم لا ترفع إلى، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[٢].

وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب : إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض.

يقول ابن الأثير : كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها يقول في مكان آخر : وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه[٢].

ويقول أبو شامة : سمعت أبا شداد يقول : أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين ، ويقول في مكان آخر : كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها .

ويقول ابن كثير[٣]: كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة ، ويقول ابن قاضي شهبة : كان نور الدين – لما صارت له الموصل – قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء – أحد شيوخ الموصل الصالحين – وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور

(١) الكواكب (صـ٢٥).
(٢) الباهر (صـ١٦٥، ١٦٦).
(٣) البداية والنهاية (٤٨١/١٦).

الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم.

وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب وأعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه : إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجئ ليشهد له[1].

فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله : إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم ، فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً : أنظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد[2].

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخلف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[3].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد .. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة.

لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ – برهان الدين البلخي – وجهاً لوجه أمام نور الدين : أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ؟ فلا والله، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين .. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه

(١) عيون الروضتين (٢٧٦/١). (٢) السابق نفسه. (٣) مرآة الزمان (٢٤٧/٨).

الحرام وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما ينّد الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[1].

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمّر أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك[2].

رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن . وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني :

دو الجهادين من عدوٍ	فهو طول الحياة في هيجاء
ايها المالك الدي الزم الناس	سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل	لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس حتى	لقسمت التقى على الاتقياء

وقال فيه ابن منير :

عقى جهادك كل رسم مخوفة	وعفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم	لله في خطراته اسرار
غضبان للإسلام مال عموده	فلنوره مما عراه نوار
لم يبق ما كسى مسلم سلفا ولا	ساع لمظلمة ولا عشارَ
همدوا كما همدت تمود وفادهم	لخسارهم مما اتوه قدارَ
العار في الدنيا شقوا بلباسه	ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة احييتها عمرية	رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما	بافلها تستعبد الاحرار

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٨).

(٢) عيون الروضتين (٣٨٤/١).

امـــا نهـــارك فهـــو ليـــل مجاهـــدٍ   والليـــل مـــن طـــول القيـــام نهـــارَ

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأينها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار[1].

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا... ﴾ (النور : ٥٥).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ. بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليُبدلنّ بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس – وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملّك بعد أصْحَمَة، رحمه الله وأكرمه.

(١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز (صـ٣٥٧).

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَثَ ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷺ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبربذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

ثانياً : بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة :

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير : .. كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة.

قال عنه ابن كثير(١): أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات : قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حّران ، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة

(١) البداية والنهاية (١٦/٤٨١).

، يقول فيها : وطالما بقيت "٢٨٠" سنة مملوءة بحزب الشياطين ... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض .

دور نور الدين في دعم المذهب السني :

مهدت مدارس نظام الملك رحمه الله السبيل ويسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[١].

١- جهود نور الدين في حلب : أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣هـ - ٣٥٦ هـ /٩٤٤م – ٩٦٧م) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦هـ - ٣٨١ هـ/٩٦٧م – ٩٩١ م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام (٣٦٧هـ/٩٧٧م) وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر [٢]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً .

وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي متغلغل في حلب ، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة[٣].

ففي رجب من عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة[٢]، كما قام نور الدين بخطوة

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٦). (٢) زبدة تاريخ حلب (١٧٢/١).
(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٧).
(١) الروضتين في أخبار الدولتين (٢٠٢/١).
(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٩). (٣) السابق نفسه.

أخرى وهي : إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي   وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة : وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين : إحداهما للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ٥٤٣هـ/١١٤٨م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاً وألقى بها الدروس على الفقهاء وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم : من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع[٢].

وكان المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النِقَّرِيَّة النورية، وقد أنشأها (سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ت ٥٧٨هـ ، ١١٨٢م أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة   ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادقة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[٣].

أ- الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب : كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي : النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير ولئن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشا فيها أشهر مدارسه وهي : النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين   ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين

بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[١].

ب - الاستفادة من جهود علماء السنة : لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[٢].

ج- دعم التصوف السني : اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاه له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك العصر محل تدير الحكام واحترامهم وخاصة نورالدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق : اثنتان منها للرجال وواحدة للنساء واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ومّد نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك[٣].

د- دور تدريس الحديث : اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف – المجانبة للحق والعدل والصواب – إلى الطعن في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشييد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية من أثر

---

(١) المصدر السابق (صـ٢١١). (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ٨٧).
(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي (صـ١٨٥).
(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢١٢).

ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبيء الناس للجهاد وتحيين فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[٢].

س- موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية : لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام ٥٥٢ه/١١٥٧م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة[١].

و- وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكانا للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرا ، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام[٢] كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين كما كان نور الدين – رحمه الله – يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن ، فالتصدي للغزو الباطني

---

(١) زبدة حلب (٣٠٨/٢: ٣١٠)، التاريخ السياسي (صـ٢١٣).
(٢) التاريخ السياسي (صـ٢١٣).

الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وأعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحقة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراءه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها : إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[١] وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذا انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذو يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب : أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس[٢].

٢- جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق : استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً ولذا فإن المنهج الذي سلكه نورالدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائد تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني – الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه – ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسية[٣]:

الاتجاه الأول : تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين : الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا

---

(١) السابق (صـ٢١٤). (٢) السابق نفسه.
(١) السابق (صـ٢١٥). (٢) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٦٤٨/١). (٤) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٥) التاريخ السياسي (صـ٢١٦). (٦) مرآة الزمان (٢٧٢/٨).

المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجلعها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق : بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة ت (٥٩٦ هـ /١١٩٩م) ووصف ابن حبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ٥٨٠هـ/١١٩٩م بأنها " من أحسن مدارس الدنيا منظراً .. وهي قصر من القصور الأنيقة[٢]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهي المدرسة النورية الصغرى[٣] وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تعني بتراث الإمامين العظيمين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة[٤]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم – خانقاه – خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله : ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها[٥]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويّة[٦].

وأما الاتجاه الثاني : فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير : تقي الدين أبو القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (٥٧١هـ/١١٧٥م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه : من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[١].

وهذه العلوم الثلاثة : أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وادناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار الحديث النورية وعناية نور الدين بالحديث الشريف – على هذا النحو – تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب : من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية ؟ فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[٢].

الاتجاه الثالث : كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بني في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن – بالمساجد التي شيدها – أوقافاً – معلومة[٣].

(١) وفيات الأعيان (٤٧١/٢: ٤٧٣).
(٢) الباهر (صـ١٦٥).
(٣) السابق (صـ١٧٢).
(٤) البداية والنهاية (٤٨١/١٦).

يذكر ابن كثير : أن نور الدين وقف وقفاً : على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة[٤].

وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية – على اختلاف أنواعها – الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨هـ/١٢١١م تسعة آلاف دينار كل شهر ، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢هـ/١١٧٦م النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق :

كأنها جنة الخلد دانية	قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة	وجامع جامع للدين معمور
يتلى القران به في كل ناحية	والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت	اوصاف مولى بنشر العدل مشهور
الملك والدين والدنيا باجمعها	وللخليفة من انواره سور

٣- دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني : لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم – وتنتشله من مستنقع البدع والضلال – وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشئ منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود – إن لم يكن كلها – إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[١]؟

يذكر المقريزي[٢]: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة " الظافر " في المحرم سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وتولية ابنه: "الفائز " وكان طفلاً صغيراً، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل

(١) التاريخ السياسي (صـ٢١٨).
(٢) حسن المحاضرة (٣/٢)، اتعاظ الحنفا (٢٢٣/٣).

السيوطي في حسن المحاضرة ، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[1]. ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحي بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي وهذا الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين – من مصر – هدايا وتحفا فقال : والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر : ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر : ... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك .

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[2].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر :

(١) التاريخ السياسي (صـ٢١٩).
(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠).

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين :

الأول : تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه.

ونص رسالته كما جاءت ، هي :

حسبي الله وكفى. وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي. وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) . أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق؛ فلله المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شئ أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تُدخر الدموع إلا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أولي أمولها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك، وفقك الله، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي، وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة. تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام. بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها ومما قاله نور الدين للشيخ : أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق .. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله[١] .

والأمر الثاني : كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي " المستضيئ " في عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في

(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠).   (٢) السابق (صـ٢٢١).

تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤل أمره إلى الفساد وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام ٥٦٧هـ/١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية[١]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل راسلة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلي عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين.

وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب : الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية.

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك[١]، ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل : دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنيح والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج[٢].

٤- عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحدا منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سموا وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سمحت له ظروفه

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠١/١).
(٢) وفيات الأعيان (٢٧٢/٤).

بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع – مع الناس – للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي ، كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في المقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لئن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم : أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[1].

إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتان المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين .

قال تعالى: [وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ... ﴿١٠٠﴾] (التوبة : ١٠٠) فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[2].

وقال رسول الله ﷺ : خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته . وعن ابن مسعود ﷺ قال : اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم وعنه ﷺ: من كان متأسياً فليتأسى بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم

(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٥).

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٢٢٣).

فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً : العدل في دولة نور الدين محمود زنكي :

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد العدل قال تعالى: [﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ... ﴾] (النحل:٩٠). وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه وقال تعالى: [﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ... ﴾] (النساء: ٥٨).

وقال تعالى: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾] (النساء : ١٣٥).

وقال رسول الله ﷺ : أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر والعدل أساس الحكم ، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات، وأهمّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[1].

ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية، والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وأنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . وقال تعالى: [﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ... ﴾] (الصافات: ٢٢) وقال تعالى: [﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ... ﴾] (النمل: ٥٢) وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية

---

(١) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٥).

صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لا قرار مبادي الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[١].

وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً : حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي . ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش باصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ؟ في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله) : فبالله عليكم .. وإلا فخبزي عليكم حرام – لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وأرفعها إلي[٢].

وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه : كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها[٣].

دار العدل أو المحكمة العليا : كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة وقد جاء إنشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل[٢].

يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له : إن الناس إذ علموا هذا

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٥). (٢) الكواكب (صـ٢٥).
(٣) الباهر (صـ١٦٦).
(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٦). (٢) الباهر (صـ١٦٨).
(٣) الروضتين (٦٢/١).

اشتطوا في الطلب. فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[٢].

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق ، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم : لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله[٣].

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة[١].

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير[٢]: ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده ، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق : ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم ، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف وفي الثانية ألفاً وخمسمائة ، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذى – رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي – وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى إلى نصارى البلاد،

---

(١) الروضتين (٦٢/١).
(٢) الكامل (٤٠٣/١١، ٤٠٤)، وقال ابن الأثير في وصف عدله: "وأما عدله، فإنه ى لم يترك في بلاده، على سعتها، وكسًا ولا عشرًا بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري يقول: قد جئت محاكمًا، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، وإنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت ثم وهبته ما يدعيه".انتهى.

فظلت الكنائس في بلاده عامرة باهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس نصاراه الصعداء وآمنوا إلى عدله وإنصافه[١].

٢- استجابته للقضاء : طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته.

وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف : يُحضر فرسي حتى نركب إليه : السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا... ﴿٥١﴾] (النور: ٥١). ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له : أمضي إلى القاضي وسلم عليه وقل له : أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[٢].

ويوماً كان يلعب الكرة – هوايته المفضلة – في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه[٢].

تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير[٣].

وفي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م أدعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين : أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[٤].

٣- لا عقوبة على الظنة والتهمة : لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبة العقوبة العادلة من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما

---

(٣) نور الدين محمود (صـ٣٦٧، ٣٦٨).
(١) الباهر (صـ١٦٦). (٢) السابق نفسه. (٣) السابق (صـ١٦٧).
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٠).

يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر[١].

٤- من عدله بعد موته : ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنسان كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدّي بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول : يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصي وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك – وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه – فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه[٢].

٥- رقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى : قال ابن الأثير : وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال : إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي : إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآه فأنكر على النّواب قال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[٣].

٦- رجال القضاء في دولة نور الدين : اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده – كما رأينا – قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها[١].

أ- القاضي كمال الدين الشهرزوري : حدث في مطلع عام ٥٥٥هـ /١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي

---

(١) عيون الروضتين (١/٣٦٤). (٢) السابق (١/٣٦٥). (٣) السابق (١/٣٦٤).

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٢). (٢) السابق نفسه.
(٣) السابق (صـ٨٣).

المعاصر له : المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فإن ولده محي الدين ينوب عنه في منصبه[٣].

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وقد تخرج من النظامية ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه وهناك من يقول أن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد : الحاكم المطلق وأصبحت دولته نافذه الأوامر منتظمة الأمور . وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[٤].

وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[١].

وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد ، كما اعتمد ابنه محي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محي الدين هذا، كما يصفه العماد : من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م ، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم . وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[٢].

ب- الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون : تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه[٣]، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ أو ٤٩٣هـ/١٠٩٩م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى

---

(١) سنا البرق الشامي (صـ١٤٦)، البداية والنهاية (٤٨١/١٦).
(٢) سنا البرق الشامي (صـ٩٧). (٣) السابق (صـ١٠٠).
(٤) وفيات الأعيان (٥٣/٣).

حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه – كما سبق وأن ذكرنا – صلاحيات واسعة[٤]. كما اعتمده عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م رسولاً إلى الخليفة المستضيئ في بغداد.

وقد توفى عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م.

٧- رفع الضرائب والمكوس : لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥% وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن : الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول : اللهم أرحم العشّار المكّاس .. وكان قد دعا أحد معاونيه – موفق الدين خالد – وقال له : اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبته الله عليكم . وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة : أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه : وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقاً للحرام الحقيقي بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة .. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل . وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين وبأمره جاء فيه : وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم .. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب وهدد من لا يطيق ذلك من المسؤولين : ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلها حلّ دمه ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به ، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله : فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم ؟ أي رواتبهم ؟ فأجابه نور الدين : إن كنا نغزو من هذه الجهات أي من هذه الموارد : نتركها ونقعد ولا نخرج .

ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس، أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من

التُّجَار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك[1].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسنجار والرحبة. وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين[2]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً [...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾] (الزمر: ١٠) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمُريَّة وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدّي، واقر الحق مقّره لقوله تعالى: [مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا... ﴿١٦٠﴾] (الأنعام: ١٦٠)، [...وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ... ﴿٢٦١﴾] (البقرة:٢٦١). ثم لما أعانه الله بعونه وأيّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد [وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾] (ص الآيات:٣٨: ٤٠) علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد [يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾] (الانفطار: ١٩) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتسابا لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه – تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ - في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسين ألف دينار[3].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥.٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار ، ويقول ابن خلدون : العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ

(١) الروضتين (٦٧/١: ٦٩). (٢) سكان الثغور. (٣) الروضتين (٧٠/١).

من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواقاً العمران، وانتقضت الأحوال ويقول : العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم .. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعاً(١).

وكانت هناك أمور عديدة ساعدة نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقصّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال : هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول : أرحم العشّار المكّاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حلٍّ وقال : والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم(٢).

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها :

مثّلْ وقوفك ايها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما	فاحذر بان تبقى ومالك نور
انهيْت عن شرب الخمور وانت	كاس المظالم طافحَ مخمورَ
عطلت كاساتِ المَدامِ تعففاً	وعليك كاسات الحرامِ تدورَ
مادا تقول إدا نقلت إلى البلى	فردا وجاءك منكرَ ونكير
وتعلقتَ فيك الخصوم وانت	في يوم الحساب مَسحَبَ مجرورَ
وتفرقتَ عنك الجنودَ وانت	في ضيق اللحود مَوَسّدَ مقبورَ
ووددِت انك ماوليت ولاية	يوما ولا قال الانام اميرَ
وبقيت بعد العزّ رهن حَفيرة	في عالم الموتى وانت حقير
وحَشرت عَريانا حزينا باكيا	قلِقا ومالك في الانام مَجير
ارضيت ان تحيا وقلبك دارسَ	عافي الخراب وجسمك المعمورَ
ارضيت ان يحظى سواك بقربه	ابدا وانت مَبعَدَ مهجور
مهد لنفسك حَجّة تنجو بها	يوم المعاد لعلك المعذورَ

(١) مقدمة ابن خلدون (صـ٢٩٠).

(٢) الروضتين (٥٤/١).

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[١]، فرحم الله الواعظ والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

٨- ما قيل من الشعر في عدله[٢]:

قال ابن منير :

بنور الدين روض كل محل ... من الدنيا وجدد كل بال

وصوب عدله في كل اوب ... فعوض عاطلا منه بحال

وينكي راية راي المحامي ... ويقتل خوفه قبل القتال

لقد احصدت للإسلام عزا ... يفوت سنامه يدكل قال

وقال أيضاً :

وانتاشى دين محمد محمودة ... من بعد ما علق دما عبراته

رددت على الإسلام عصر شبابه ... تباته من دونه وتباته

ارسى فواعده ومد عماذة ... صعدا وشيدا سوره سوراته

واعاد وجه الحق ابيض ناصعا ... إصلاته وصلاته وصلاته

وقال أيضاً :

لا تامنوا في الله بطشة ثائر ... لله ملء سريره اسرار

صاف إذا كدر المعادن عادل ... إن حاف حكام الملوك وجاروا

وقال أيضاً :

او لست من ملا البسيطة عدلة ... واجتب بالمعروف انف المنكر

حدب الاب البر الكبير، ورافة ... الام الحفية باليتيم الاصعر

يا هضبة الإسلام من يعصم بها ... يامن، ومن يتول عنها يكفر

وقال أيضاً :

لا ملك إلا ملك محمود الدي ... تخد الكتاب مظاهرا ووزيرا

---

(١) البداية والنهاية (٤٨٩/١٦).
(٢) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين (صـ١٦٧: ١٧١).

تمشـــى وراء حــدودِه احكامَــهَ تـــــاتمَهَنَ فــــيحكم التقـــديرا
يقظــان ينشـر عدلـهَ فـي دولـهَ جاءت لِمطوي السماح نشورا

وقال أيضاً :
يــا ســائلي عــن نهــج سـيرته هـل غيـر مفـرق هامِـهَ الفجـر
عــــدل حقيـــق مـــن تاملـــه ان يحـــي العمـــرين بالـــذكر

وقال أيضاً :
تنـــى يـــده عــن الــدنيا عفــاف ومـال بهـا عـن الامـوال زهـد
راى حط المكوس عن الرعايا فاهـــدر مـــا انشـــاه بعـــد
ومـد لهـا رواق العـدل شـرعا وقـد طـوى الـرواق ومـن يمـد
وبـات وعنـد بـاب العرش منها لدولتـــــه دعـــــاء لا يـــــرد

وقال العماد الأصفهاني في عدله :
يـا محـي العـدل الـذي فـي ظلـه مـنِ عدلـه رعـت الاسـود مـع المهـــــــــــــــــــــــــا
محمــودَ المحمــودَ مِــن ايامــه لبهائِهـا ضـحك الزمـان وفهفهـا

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي[1]، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: [لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾] (الحديد: ٢٥). فهذه الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيدلوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالأيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشرذم، وتمنحها الأهداف ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً

(١) الإسلامي والوعي الحضاري (صـ١١٥). (٢) السابق (صـ١١٧).
(٣) السابق نفسه.

وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم فالأيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمها القرآن الكريم يهدف إلى تثبيت موازين العدالة وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن وينتفعون بالعمل والإنتاج(٣).

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين(١).

رابعاً : مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود :

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة وإنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوته معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبدّل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه " الموقف" هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها(٢).

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه "تصميم" هادف يسعى إلى عملية "التأصيل العقائدي" من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والإزدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيزّ التاريخ "الإنسان" المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله(٣).

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٣٩).
(٢) السابق (صـ١٣٠).
(٣) السابق (صـ١٣١).

وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيين، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[3].

فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم ، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم[1]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدينهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً ، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز فالمذاهب عنده – كما أجمع المؤرخون – كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء ، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين .. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث، كما ألف كتاباً في الجهاد، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين اثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته[2].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز، دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١- تقديمه للعلماء على الأمراء : كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا[3].

وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، ينهاهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم من المعصوم ؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري ، عنده وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال نور الدين له : يا هذا إن ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زله تذكرها وهي العلم والدين،

---

(١) مفرج الكروب (٢٨٣/١).
(٢) الباهر (صـ١٧١: ١٧٣)، الكواكب (صـ٥٦، ٥٧)، مرآة الزمان (٣١٣/٨)، نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٣٥، ٣٦).
(٣) البداية والنهاية (٤٨٦/١٦).

وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا – إن صحت – مع وجود حسناته ؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينَّك، فكف عنه .

٢- البذل والعطاء للعلماء : لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا – على أهميته – إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألاّ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[1].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمَّهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا ، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكنّ العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب الأخرى ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله – تعالى – كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٤٠).

عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد، قال تعالى: [...إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾] (القصص : ٢٦).

٣- اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهره والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية وهو مؤهلاً بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم : القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت٥٦٣هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق ، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يمكن لمذهب أهل السنة[١].

٤- هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود : شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[٢]حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة : خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية ، فالدولة التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين – هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة،

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٢٢).
(٢) الباهر (صـ١٦١).
(٣) مرآة الزمان (٢١٩/٨).

ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وقد استقدم – على سبيل المثال:

أ- برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب[١].

ب- الفقيه أبو العباس السلفي : فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا لعباس أحمد السلفي – من دمشق أيضاً – ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسيّر إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ولم يزل – الأخير – مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما يلبث أن يتوفى عام ٥٤٨هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ، تم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[٢].

ج- عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي : تعاقب على المدرسة الحلاوية مدرسون من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانة لكنه غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة وعين في المدرسة الحلاوية حتى وفاته عام ٥٨١هـ أو ٥٨٢هـ بينما أقر علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه : كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[٣].

وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى

(١) نور الدين محمود (صـ١٤٥).
(٢) تاريخ حلب (٣٠٥/٤)، نور الدين محمود (صـ١٤٦).
(٣) نور الدين محمود (صـ١٤٦).

قولها وكانت تمارس الإفتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب[٣].

د- الإمام شرف الدين ابن أبي عصورن : وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام٥٥٠هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار – غربي الموصل – الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان – بحق – من أعيان فقهاء عصره وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وفوضّه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ[١].

هـ- قطب الدين مسعود النيسابوري : وفي عام ٥٤٤هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠هـ فدّرس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه : فقيه عصره ونسيج وحده ، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨ه لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها ، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨هـ[٢].

و- سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري : المتوفى سنة ٥٦٠هـ والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحّدث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم بن عساكره ، ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[٢].

---

(١) زبدة حلب (٢٩٣/٢). (٢) البرق (صـ١٣٤)، مرآة الزمان (٢٩٤/٨).
(١) الدارس في تاريخ المدارس (١٥٣/٢)، المنتظم (٢٤٩/١٠).
(٢) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠٨/١). (٣) مرآة الزمان (٢٩٥/٨).

ز- الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني : وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت – بعدئذ – بالمدرسة العمادية نسبة إليه وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه : الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[١].

ح- الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغددي، ملك النحاة كما يسميه سبط بن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه[٢].

ط- أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه : كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه " الروضتين ".

ي- أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ ... ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه.

ك- شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حموية: وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ فأقبل عليه نور الدين ورغبّه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة[٢].

٥- ابتعاد نور الدين عن التعصب : لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى – من خلال نشاطه المدرسي هذا – إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتيبّس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير : العمل

(١) البرق (صـ١٣٥).

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٦٥).

على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبُدع واجتهاد خلاّق إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة : ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعّم وأشمل وأبعد مدى – وثمة حادثة – من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون – تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[٢].

في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهب من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس .. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين " فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه – مجد الدين بن الداية – وقال لهم على لسانه :نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[١].

لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والكريم والسنّة المطهرة، التعصب اللذان يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال ويصدّان عن اتباع النور والهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[٣].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[٣].

(١) تاريخ حلب (٦٨/٢).
(٢) في ظلال القرآن (٩٩١/٢).
(٣) فقه النصر والتمكين (صـ٢٦٠).

وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

٦- أثر العلماء في دولة نور الدين : كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ- الجهاد ضد الصليبيين : فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد ، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م ومن أعماله التي قام بها لينضّم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ٥٦٢هـ/١١٦٦م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[1].

ب- السفارات بين الدولة : شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما يهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين ومن سفراء الاستنجاد طلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى ٥٧٢هـ/١١٧٦م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ/ ١١٣٥ -٥٥٥هـ/١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ ٥٤٧هـ/١١٣٣ -١١٥٢م) عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام وقد مرّ تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيئ (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧٢م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٣، ١٨٤).

الأثير : فأكرم الخليفة كمال الدين إكرماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين (٥٣٤ - ٥٤٩هـ/١١٣٩ - ١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[١].

ج- تولي بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك وكتابة الإنشاء وغير ذلك من المناصب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها :

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها : ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ونية حسنة، وعلم غزير، مما مكنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[٢].

خامساً : الشورى في دولة نور الدين محمود :

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم وهو يمثل أرقى أشكال التعاون قال تعالى: [وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣٨] (الشورى: ٣٨). كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: [...وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩] (آل عمران: ١٥٩).

وقال الشاعر :

إذا بلغ الراي المشورة فاستعن   براي لبيب او مشورة حازم

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٦).
(٢) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري (صـ٣١٣).

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية[١].

١- الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم : ليس العمل إلاّ ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره، ولاّ ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاّ وينكره، والساكت منكم مصدِّق للناطق ومصوبٌ له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به[٢].

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٤٥٤).
(١) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٤)، نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٠).

٢- مجالس متخصصة: كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً .. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهما الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم ... ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استعداد تشريع أو إقرار قانون ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مّر ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة وقد شبه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا... وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من : الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلة ولم يتعّده إلى غيره البتة[١].

فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلا بعد الإطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء وكان يكاتب العلماء للاستثارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب فقال له شرف الدين بن أبي عصرون : والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[٢].

٣- فراسته في معرفة العلماء : لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو

(١) الباهر (صـ١٧١: ١٧٣).
(٢) عيون الروضتين (٣٧٤/١)، المنتظم (٢٤٩/١٠).

يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً إن الرجل يرفض الكذب، والكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع وهو – من الجهة الأخرى – يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب ﷺ متحدثاً عن نفسه لست بالخبّ[1]، ولا الخبّ يخدعني، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن " يعبر " على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علمّية الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال : في رجب – يقول العماد – فوض إليّ نور الدين إحدى مدارسه وعّول عليّ في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢هـ خلفّ ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء ، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع فقال لي : تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً[2].

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف ؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى ؟ وكيف ؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بسروة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة[3].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها

---

(١) الخادع. (٢) البرق (صـ١١٩، ١٢٠). (٣) فقه النصر والتمكين (صـ٤٦٤، ٤٦٥).

جانب الفنون الإدارية وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنبيهم عنها في الرأي وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة : ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة ويستشار المهندسون وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[1]. لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان.

وترجل الفارس

قال العماد الأصفهاني : وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالّ دمشق أياما.

قال : ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها :

عيدان : فطرٌ وطُهرٌ فتح قريب ونصر

كلاهما لك فيه حقاً هناء وأجر

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (صـ٥٧، ٥٨).

وفيهمـــــا بالتهــــــاني رســـــمَ لنـــا مســـــتمر
طهـــارة طـــاب منهـــا اصــل وفــرع وذكــر(١)

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص(٢)،... وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وجمّل الموكب... ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته وإلى حلب وقد جّرب الدهر بحنتكه.. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقها ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خّواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له: ياش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجلة بحديث اجله والنَّاس من الختان لا هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراج إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعتزته عجز الأطباء عن علاجها "وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مائة" ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى(٢).

وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول : طالماً تعرضت للشهادة فلم أُدْرِكْ وقال الذهبي : نور الدين الشهيد، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الــدّين فــي ظلــم لغيبــة نــوره والــدهر فــي غمــم لفقــد اميــره

(١) الروضتين (٣٠٨/٢). (٢) السابق نفسه.
(١) سير أعلام النبلاء (٥٣٧/٢٠).

فلينـدبِ الإسـلامَ حـامي اهلـه والشـام حـافظ ملكـه وتغـوره
مـا اعظـم المِقـدار فـي اخطـاره إد كـان هدا الخطـب فـي مقدوره
مـا اكتـر المتاسـفين لفقـد مـن قـرَت نـواظرَهم بفقـد نظيـره
مـا اغـوص الإنسـان فـي نسـيانه او مـا كفـاه المـوت فـي تـدكيره
مـن للمسـاجد والمـدارس باينـا لله طوعـا عـن خلـوصِ ضـمِيره
مـن ينصـر الإسـلام فـي غزواتـه فلقـد اصـيب بَركنـه وظهيـره
مـن للفـرنج ومـن لاسـر ملوكهـا مـن للهَـدى يبغـي فكـاك اسـيره
مـن للخطـوب مـدللا لجماحهـا مـن للزمـان مَسـهلا لـو عـوَره
مـن كاشـفَ للمعاضـلات برايـه مـن مَشـرقَ فـي الـدَاجيات بنـوره
مـن للكـريم ومـن لـنعش عِتـاره مـن لليتـيم ومـن لجبـر كسـيره
مـن للـبلاد ومـن لنصـر جيوشـها مـن للجهـاد ومـن لحفـظ امـوره
مـن للفتـوح محـاولا ابكارهـا برواحـه فـي غـزوه وبكـوره
مـن للعَـلا وعَهودهـا مـن للنـدى ووفـوده مـن للحِجـا ووفـوره
من كنـت احسـب نـور دينِ محمدٍ يخبـو وليـلَ الشـرك فـي ديَجـوره
اعـزز علـيَ بليـث غـاب للهَـدى يخلـو الشـرى مـن زوره وزئيـره
اعَـزِز علـيَ بـان اراه مَغيَبـا عـن محفـل متشـرَفٍ بحضـوره
لهفـي علـى تلـك الانامـل إنهـا مَـدغيَت غـاض النـدى ببحـوره
ولقد اتـى مـن كنـت تجـري رسمه فضـع العلامـهَ منـك فـي منشـورة
ولقد اتـي مـن كنـت تكشـف كرَبـه فـارفع طلامتـه بنصـر عشـيرة
ولقد اتـى مـن كنـت تـؤمن سِـرَبهَ وقـع لـه بـالامن مـن محـدَوره
ولقـد اتـى مـن كنـت تـؤتر قرَبـه فـادِم لـه التقريِـب فـي تقريـره
والجيش قد ركـب الغداة لعرَضِـهِ فاركـب لتبصِـرهَ اوان عبـوره
انـت الـدي احييـت شـرع محمـد وقضـيت بعـد وفاتـه بنشـوره
كـم قد اقمـت مـن الشَـريعهَ معلمـا هـو منـد غبـت مَعـرَضَ لـدِتوره

كم قد امرت بحفر خندق معقِل حتى سكتت اللحْد في محضوره
كم قيصرٍ للروم رمَت بفسره إرواء بيض الهند من تاوره
اوتيت فتح حصونه وملكت عقر بلاده وسبيت اهل قصوره
ازهدت في دار الفناء واهلها ورغبت في الخلدِ المقيم وحوره
اوما وعدت القدس انك منجِزَ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العِدى وتقدس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلا فمن عجبٍ نهوضكم بحمل تبيره
يا عابرين بنعشه انشقتمَ من صالح الاعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه مستجمعين على شفير حفيره
ومِن الجفاء له مقامي بعده هلا وفيتَ وسرتَ عند مسيره
حيّاك مَعتلَ الصّبا بنسيمه وسقاك مَنهلَ الحيا بدروره
ولبسَت رضوان المهيمن ساحِبا اديال سَندس خزّه وحريره
وسكنت عليين في فِردوسِهِ حِلف المسرّة ظافرا باجوره

قم أيها الفارس البطل وانظر إلى حكام العرب والمسلمين اليوم، أنهم هم الذين يجلبون الإفرنج لمحاصرتهم واحتلالهم وإذلالهم، وهم لا يخجلون من الله العلي القدير وهم فرحون يضحكون من الأعماق كلما أذلوهم أكثر.

والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء يقول شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي : .. فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خِلأنه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ﷺ في العدل والجهاد واجتهدا في إعزاز دين الله أي اجتهاد وهما مِلِكا بلدتنا وسُلطانا خُطتنا خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على إفرد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّة يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجُةً عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسددَّ ..

هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فلله درهما من ملكين تعاقباً على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عِيّ، وظهرت من خالقهما العناية .... والفضل للمتقدم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلةً، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعد له وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة... فما أحقهما بقول.

الشاعر :

والـــبس الله هاتيـــك العِظـــام وإن   بلـين تحـت التـرى عفـوا وغفرانـا

سقى ترى اودِعَوه رحمة ملاتَ   متوى قبورهم روحا وريحانا[1]

وإليك أخي أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته.

أولاً : الحرص على تطبيق الشريعة :

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية "براغماتية" لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدما صوب آفاقها الرحبة الشاملة إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث

---

(١) عيون الروضتين (١/٢٧، ٢٨).
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٦).
(٣) الباهر (صـ١٦٦).
(٤) البرق (صـ١٤٦).

المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية وكسب واحتراف وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى – فعلاً – إلى أن تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[١].

قال : ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل.

وقال : نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها[٣].

وقال مخاصباً أحد ولاته : انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن، والمساوئ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة[٤].

وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه : والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلى، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[٢].

وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب : إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض.

يقول ابن الأثير : كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها يقول في مكان آخر : وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه[٢].

ويقول أبو شامة : سمعت أبا شداد يقول : أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين ، ويقول في مكان آخر : كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها .

ويقول ابن كثير[٣]: كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة ، ويقول ابن قاضي شهبة : كان نور الدين – لما صارت له الموصل – قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء – أحد شيوخ الموصل الصالحين – وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور

(١) الكواكب (صـ٢٥).
(٢) الباهر (صـ١٦٥، ١٦٦).
(٣) البداية والنهاية (٤٨١/١٦).

الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم.

وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب وأعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه : إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجئ ليشهد له[1].

فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله : إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم ، فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً : انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد[2].

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخلف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[3].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد .. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة.

لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ – برهان الدين البلخي – وجهاً لوجه أمام نور الدين : أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ؟ فلا والله، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين .. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه

---

(١) عيون الروضتين (٢٧٦/١). (٢) السابق نفسه. (٣) مرآة الزمان (٢٤٧/٨).

الحرام وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما يند الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[1].

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك[2].

رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن . وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني :

دو الجهادين من عدو	فهو طول الحياة في هيجاء
ايها المالك الدي الزم الناس	سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل	لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس حتى	لقسمت التقى على الاتقياء

وقال فيه ابن منير :

عفى جهادك كل رسم مخوفة	وعفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم	لله في خطراته اسرار
غضبان للإسلام مال عموده	فلنوره مما عراه نوار
لم يبق ما كسى مسلم سلفا ولا	ساع لمظلمة ولا عشار
همدوا كما همدت تمود وفادهم	لخسارهم مما اتوه قدار
العار في الدنيا شقوا بلباسه	ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة احييتها عمرية	رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما	باقلها تستعبد الاحرار

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٨).

(٢) عيون الروضتين (٣٨٤/١).

امــا نهــارك فهــو ليــل مجاهــدٍ والليــل مــن طــول القيــام نهــارَ

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأينها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار(١).

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء : ٦٥).

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا... ﴿٥٥﴾﴾ (النور : ٥٥).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ. بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس – وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمَة، رحمه الله وأكرمه.

(١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز (صـ٣٥٧).

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَثَ ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأَطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷺ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء ﷺ على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبربذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

ثانياً : بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة :

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير : .. كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة.

قال عنه ابن كثير(١): أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات : قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حّران ، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة

(١) البداية والنهاية (٤٨١/١٦).

، يقول فيها : وطالما بقيت "٢٨٠" سنة مملوءة بحزب الشياطين ... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض .

دور نور الدين في دعم المذهب السني :

مهدت مدارس نظام الملك رحمه الله السبيل ويسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[١].

١- جهود نور الدين في حلب : أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣هـ - ٣٥٦ هـ /٩٤٤م – ٩٦٧م) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦هـ - ٣٨١ هـ/٩٦٧م – ٩٩١ م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام (٣٦٧هـ/٩٧٧م) وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر [٢]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً .

وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي متغلغل في حلب ، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة[٣].

ففي رجب من عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة[٢]، كما قام نور الدين بخطوة

---

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٦). (٢) زبدة تاريخ حلب (١٧٢/١).
(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٧).
(١) الروضتين في أخبار الدولتين (٢٠٢/١).
(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٩). (٣) السابق نفسه.

أخرى وهي : إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي ووكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة : وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين : إحداهما للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ٥٤٣هـ/١١٤٨م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاً وألقى بها الدروس على الفقهاء وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم : من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع[٢].

وكان المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النِفَّرِيَّة النورية، وقد أنشأها (سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ت ٥٧٨هـ ، ١١٨٢م أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادقة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[٣].

أ- الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب : كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي : النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير ولئن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشا فيها أشهر مدارسه وهي : النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين

بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[١].

ب - الاستفادة من جهود علماء السنة : لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[٢].

ج- دعم التصوف السني : اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاه له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك العصر محل تدير الحكام واحترامهم وخاصة نورالدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق : اثنتان منها للرجال وواحدة للنساء واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ومدّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك[٣].

د- دور تدريس الحديث : اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف – المجانبة للحق والعدل والصواب – إلى الطعن في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشييد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية من أثر

---

(١) المصدر السابق (صـ٢١١). (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ٨٧).
(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي (صـ١٨٥).
(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢١٢).

ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبيء الناس للجهاد وتحيين فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[٢].

س- موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية : لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام ٥٥٢ه/١١٥٧م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة[١].

و- وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكانا للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرا ، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام[٢] كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين كما كان نور الدين – رحمه الله – يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن ، فالتصدي للغزو الباطني

(١) زبدة حلب (٣٠٨/٢: ٣١٠)، التاريخ السياسي (صـ٢١٣).
(٢) التاريخ السياسي (صـ٢١٣).

الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وأعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحقة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراءه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها : إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[١] وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذا انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذو يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب : أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس[٢].

٢- جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق : استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً ولذا فإن المنهج الذي سلكه نورالدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائد تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني – الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه – ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسية[٣]:

الاتجاه الأول : تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين : الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا

---

(١) السابق (صـ٢١٤).
(٢) السابق نفسه.
(١) السابق (صـ٢١٥).
(٢) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٦٤٨/١).
(٤) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٥) التاريخ السياسي (صـ٢١٦).
(٦) مرآة الزمان (٢٧٢/٨).

المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجلعها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق : بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة ت (٥٩٦ هـ /١١٩٩م) ووصف ابن حبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ٥٨٠هـ/١١٩٩م بأنها " من أحسن مدارس الدنيا منظراً .. وهي قصر من القصور الأنيقة[٢]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهي المدرسة النورية الصغرى[٣] وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تعني بتراث الإمامين العظيمين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة[٤]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم – خانقاه – خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله : ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها[٥]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حموّية[٦].

وأما الاتجاه الثاني : فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير : تقي الدين أبو القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (٥٧١هـ/١١٧٥م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه : من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[١].

وهذه العلوم الثلاثة : أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وادناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار الحديث النورية وعناية نور الدين بالحديث الشريف – على هذا النحو – تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب : من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية ؟ فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[٢].

الاتجاه الثالث : كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بني في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن – بالمساجد التي شيدها – أوقافاً – معلومة[٣].

(١) وفيات الأعيان (٤٧١/٢: ٤٧٣).
(٢) الباهر (صـ١٦٥).
(٣) السابق (صـ١٧٢).
(٤) البداية والنهاية (٤٨١/١٦).

يذكر ابن كثير : أن نور الدين وقف وقفاً : على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة[٤].

وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية – على اختلاف أنواعها – الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨هـ/١٢١١م تسعة آلاف دينار كل شهر ، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢هـ/١١٧٦م النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق :

كأنها جنة الخلد دانية	قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة	وجامع جامع للدين معمور
يتلى القران به في كل ناحية	والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت	اوصاف مولى بنشر العدل مشهور
الملك والدين والدنيا باجمعها	وللخليفة من انواره سور

٣- دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني : لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم – وتنتشله من مستنقع البدع والضلال – وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشئ منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود – إن لم يكن كلها – إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[١]؟

يذكر المقريزي[٢]: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة " الظافر " في المحرم سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وتولية ابنه: "الفائز " وكان طفلاً صغيراً، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل

(١) التاريخ السياسي (صـ٢١٨).
(٢) حسن المحاضرة (٣/٢)، اتعاظ الحنفا (٢٢٣/٣).

السيوطي في حسن المحاضرة ، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[1]. ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحي بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي وهذا الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين – من مصر – هدايا وتحفا فقال : والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر : ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر : ... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالإنفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك .

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[2].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر :

(١) التاريخ السياسي (صـ٢١٩).
(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠).

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين :

الأول : تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه.

ونص رسالته كما جاءت ، هي :

حسبي الله وكفى. وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي. وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ) . أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق؛ فلله المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شئ أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تُدخر الدموع إلا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أولي أمولها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك، وفقك الله، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي، وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة. تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام. بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها ومما قاله نور الدين للشيخ : أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق .. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله[١] .

والأمر الثاني : كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي " المستضيئ " في عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في

(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠). (٢) السابق (صـ٢٢١).

تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤل أمره إلى الفساد وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام ٥٦٧هـ/١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية[٢]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل راسلة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلي عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين.

وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب : الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية.

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك[١]، ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل : دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنيح والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج[٢].

٤- عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحدا منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سموا وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سمحت له ظروفه

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠١/١). (٢) وفيات الأعيان (٢٧٢/٤).

بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع – مع الناس – للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي ، كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في المقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لئن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم : أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[١].

إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين .

قال تعالى: [وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟... ﴿١٠٠﴾] (التوبة : ١٠٠) فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[٢].

وقال رسول الله ﷺ : خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته . وعن ابن مسعود ﷺ قال : اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم وعنه ﷺ: من كان متأسياً فليتأسى بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هديا وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم

(١) التاريخ السياسي (صـ٢٢٥).

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٢٢٣).

فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً : العدل في دولة نور الدين محمود زنكي :

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد العدل قال تعالى: [﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ... ﴾] (النحل:٩٠). وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه وقال تعالى: [﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ... ﴾] (النساء: ٥٨).

وقال تعالى: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾] (النساء : ١٣٥).

وقال رسول الله ﷺ : أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر والعدل أساس الحكم ، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات، وأهمّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[1].

ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية، والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وأنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . وقال تعالى: [﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ... ﴾] (الصافات: ٢٢) وقال تعالى: [﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ... ﴾] (النمل: ٥٢) وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية

(١) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٥).

صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لا قرار مبادي الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[1].

وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً : حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي . ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش باصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ؟ في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله) : فبالله عليكم .. وإلا فخبزي عليكم حرام – لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وأرفعها إلي[2].

وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه : كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها[3].

دار العدل أو المحكمة العليا : كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة وقد جاء إنشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل[2].

يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له : إن الناس إذ علموا هذا

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٥). (٢) الكواكب (صـ٢٥).
(٣) الباهر (صـ١٦٦).
(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٦). (٢) الباهر (صـ١٦٨).
(٣) الروضتين (٦٢/١).

اشتطوا في الطلب. فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا(٢).

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق ، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم : لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله(٣).

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة(١).

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير(٢): ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده ، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق : ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم ، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف وفي الثانية ألفاً وخمسمائة ، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذى – رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي – وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى إلى نصارى البلاد،

---

(١) الروضتين (٦٢/١).
(٢) الكامل (٤٠٣/١١، ٤٠٤)، وقال ابن الأثير في وصف عدله: "وأما عدله، فإنه ى لم يترك في بلاده، على سعتها، وكسًا ولا عشرًا بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري يقول: قد جئت محاكمًا، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، وإنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت ثم وهبته ما يدعيه".انتهى.

فظلت الكنائس في بلاده عامرة باهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه[١].

٢- استجابته للقضاء : طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته.

وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف : يُحضر فرسي حتى نركب إليه : السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: [إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا... ﴿٥١﴾] (النور: ٥١). ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له : أمضي إلى القاضي وسلم عليه وقل له : أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[٢].

ويوماً كان يلعب الكرة – هوايته المفضلة – في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه[٢].

تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير[٣].

وفي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م أدعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين : أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[٤].

٣- لا عقوبة علي الظنة والتهمة : لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبة العقوبة العادلة من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما

---

(٣) نور الدين محمود (صـ٣٦٧، ٣٦٨).
(١) الباهر (صـ١٦٦). (٢) السابق نفسه. (٣) السابق (صـ١٦٧).
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٠).

يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر[(١)].

٤- من عدله بعد موته : ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنسان كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدّي بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول : يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك – وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه – فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه[(٢)].

٥- رقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى : قال ابن الأثير : وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إل كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال : إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي : إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مّرة أخرى فرآه فأنكر على النّواب قال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[(٣)].

٦- رجال القضاء في دولة نور الدين : اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده – كما رأينا – قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منُذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها[(٢)].

أ- القاضي كمال الدين الشهرزوري : حدث في مطلع عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي

---

(١) عيون الروضتين (٣٦٤/١). (٢) السابق (٣٦٥/١). (٣) السابق (٣٦٤/١).

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٢). (٢) السابق نفسه.
(٣) السابق (صـ٨٣).

المعاصر له : المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فإن ولده محي الدين ينوب عنه في منصبه[٣].

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وقد تخرج من النظامية ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه وهناك من يقول أن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد : الحاكم المطلق وأصبحت دولته نافذه الأوامر منتظمة الأمور . وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[١].

وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[١].

وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد ، كما اعتمد ابنه محي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محي الدين هذا، كما يصفه العماد : من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م ، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم . وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[٢].

ب- الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون : تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه[٣]، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ أو ٤٩٣هـ/١٠٩٩م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى

(١) سنا البرق الشامي (صـ١٤٦)، البداية والنهاية (٤٨١/١٦).
(٢) سنا البرق الشامي (صـ٩٧). (٣) السابق (صـ١٠٠).
(٤) وفيات الأعيان (٥٣/٣).

حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه – كما سبق وأن ذكرنا – صلاحيات واسعة[٤]. كما اعتمده عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م رسولاً إلى الخليفة المستضيئ في بغداد.

وقد توفى عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م.

٧- رفع الضرائب والمكوس : لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥% وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن : الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول : اللهم أرحم العشّار المكّاس .. وكان قد دعا أحد معاونيه – موفق الدين خالد – وقال له : اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبته الله عليكم . وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة : أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه : وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقاً للحرام الحقيقي بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة .. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل . وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين وبأمره جاء فيه : وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم .. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين : ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلها حلّ دمه ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به ، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله : فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم ؟ أي رواتبهم ؟ فأجابه نور الدين : إن كنا نغزو من هذه الجهات أي من هذه الموارد : نتركها ونقعد ولا نخرج .

ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس، أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من

التُّجَار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك[1].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسنجار والرحبة. وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين[2]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً [...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠] (الزمر: ١٠) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمُريَّة وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدّي، واقر الحق مقّره لقوله تعالى: [مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا... ۝١٦٠] (الأنعام: ١٦٠)، [...وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ... ۝٢٦١] (البقرة:٢٦١). ثم لما أعانه الله بعونه وأيّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد [وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠] (ص الآيات:٣٨: ٤٠) علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد [يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩] (الانفطار: ١٩) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتسابا لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه – تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ - في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسين ألف دينار[3].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥.٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار ، ويقول ابن خلدون : العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ

(١) الروضتين (٦٧/١: ٦٩). (٢) سكان الثغور. (٣) الروضتين (٧٠/١).

من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواقاً العمران، وانتقضت الأحوال ويقول : العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم .. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعاً[1].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدة نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقصَّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال : هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول : أرحم العشّار المكّاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حِلّ وقال : والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم[2].

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها :

مثّلْ وقوفك ايها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما	فاحذر بان تبقى ومالك نور
انهيت عن شرب الخمور وانت	كاس المظالم طافحَ مخمورَ من
عطلت كاساتِ المَدامِ تعففا	وعليك كاسات الحرامِ تدورَ
مادا تقول إدا نقلت إلى البِلى	فردا وجاءك منكرٌ ونكيرٌ
وتعلقتْ فيك الخصوم وانت	في يوم الحساب مَسحَبَ مجرورَ
وتفرقتْ عنك الجنودَ وانت	في ضيق اللحود مَوسّدَ مقبورَ
ووددِت انك ماوليت ولاية	يوما ولا قال الانام اميرَ
وبقِيت بعد العزّ رهن حَفيرة	في عالم الموتى وانت حقيرٌ
وحشرت عَريانا حزينا باكيا	قلِقا ومالك في الانام مُجيرُ
ارضِيت ان تحيا وقلبُك دارسٌ	عافي الخراب وجسمك المعمورَ
ارضيت ان يحظى سواك بقربه	ابدا وانت مُبعَدَ مهجور
مهّد لنفسك حُجّة تنجو بها	يوم المعاد لعلكَ المعذورَ

(١) مقدمة ابن خلدون (صـ٢٩٠).
(٢) الروضتين (٥٤/١).

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[1]، فرحم الله الواعظ والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

٨- ما قيل من الشعر في عدله[2]:

قال ابن منير :

بنور الدين روض كل محلٍ ... من الدنيا وجدد كل بالِ

وصوب عدله في كل اوب ... فعوض عاطِلا منه بحال

وينكي راية راي المحامي ... ويقتل خوفه قبل القتال

لقد احصدت للإسلام عِزا ... يفوت سنامه يدكل قال

وقال أيضاً :

وانتاشى دين محمدٍ محمودهٔ ... من بعد ما علق دما عبراته

رددت على الإسلام عصر شبابهِ ... تباته من دونه وتباته

ارسى قواعده ومد عِمادهٔ ... صعدا وشيدا سوره سوراته

واعاد وجه الحق ابيض ناصعاً ... إصلاته وصِلاته وصلاته

وقال أيضاً :

لا تامنوا في الله بطشة ثائرٍ ... لله ملءَ سريره اسرارَ

صافٍ إدا كدِر المعادِنَ عادِلَ ... إن حاف حكام الملوك وجاروا

وقال أيضاً :

او لست من ملا البسيطة عدلهٔ ... واجتب بالمعروف انف المنكر

حدب الاب البر الكبير، ورافهٔ ... الام الحفية باليتيم الاصعر

يا هضبة الإسلام من يعصم بها ... يامن، ومن يتول عنها يكفر

وقال أيضاً :

لا ملك إلا ملك محمود الدي ... تخد الكتاب مظاهرا ووزيرا

---

(١) البداية والنهاية (٤٨٩/١٦).
(٢) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين (صـ١٦٧: ١٧١).

تمشـــى وراء حــدودِه احكامَــهَ تـــاتمَهَنَ فــيحكم التقـــديرا
يقظـان ينشـر عدلَـهَ فـي دولـهَ جاءت لِمطوي السماح نشورا

وقال أيضاً :
يــا ســائلي عــن نهــج ســيرته هـل غيـر مفـرق هامِـهَ الفجـر
عـــدل حقيـــق مـــن تاملـــه ان يحـــي العمـــرين بالـــدكر

وقال أيضاً :
تنــى يــده عــن الــدنيا عفــاف ومــال بهــا عــن الامــوال زهــد
راى حط المكوس عن الرعايا فاهـــدر مـــا انشـــاه بعـــد
ومـد لهـا رواق العـدل شـرعا وقـد طـوى الـرواق ومـن يمـد
وبـات وعنـد بـاب العرش منهـا لدولتـــــه دعـــــاء لا يـــــرد

وقال العماد الأصفهاني في عدله :
يـا محـي العـدل الـذي فـي ظلـه مـن عدلـه رعـت الاسـود مـع المهـــــــــــــــا
محمــودَ المحمــودَ مِــن ايامــه لبهائِهـا ضـحك الزمـان وقهقهـا

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي[1]، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: [لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾] (الحديد: ٢٥). فهذه الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيدلوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالأيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشرذم، وتمنحها الأهداف ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً

(١) الإسلامي والوعي الحضاري (صـ١١٥). (٢) السابق (صـ١١٧).
(٣) السابق نفسه.

وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم فالأيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمها القرآن الكريم يهدف إلي تثبيت موازين العدالة وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن وينتفعون بالعمل والإنتاج[٣].

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً علي الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين[٣].

رابعاً : مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود :

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة وإنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوته معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبّدل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه " الموقف" هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماوها[١].

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه "تصميم" هادف يسعى إلى عملية "التأصيل العقائدي" من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والإزدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلي حيزّ التاريخ "الإنسان" المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله[٢].

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٣٩).

(٢) السابق (صـ١٣٠).

(٣) السابق (صـ١٣١).

وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيين، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[٣].

فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم ، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم[١]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدينهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً ، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز فالمذاهب عنده – كما أجمع المؤرخون – كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء ، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين .. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث، كما ألف كتاباً في الجهاد، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين اثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته[٢].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز، دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١- تقديمه للعلماء على الأمراء : كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا[٣].

وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، ينهاهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم من المعصوم ؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري ، عنده وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال نور الدين له : يا هذا إن ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زله تذكرها وهي العلم والدين،

---

(١) مفرج الكروب (٢٨٣/١).
(٢) الباهر (صـ١٧١: ١٧٣)، الكواكب (صـ٥٦، ٥٧)، مرآة الزمان (٣١٣/٨)، نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٣٥، ٣٦).
(٣) البداية والنهاية (٤٨٦/١٦).

وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا – إن صحت – مع وجود حسناته ؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينَّك، فكف عنه .

٢- البذل والعطاء للعلماء : لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا – على أهميته – إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألآ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[1].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمَّهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا ، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكنّ العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب الأخرى ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله – تعالى – كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٤٠).

عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد، قال تعالى: [...إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾] (القصص : ٢٦).

٣- اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهره والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية وهو مؤهلاً بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم : القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت٥٦٣هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق ، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يمكن لمذهب أهل السنة[1].

٤- هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود : شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[2]حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة : خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية ، فالدولة التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين – هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة،

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٢٢).
(٢) البـــاهر (صـ١٦١).
(٣) مرآة الزمان (٢١٩/٨).

ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وقد استقدم – على سبيل المثال:

أ- برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاّوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب[١].

ب- الفقيه أبو العباس السلفي : فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا لعباس أحمد السلفي – من دمشق أيضاً – ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسّير إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ولم يزل – الأخير – مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما يلبث أن يتوفى عام ٥٤٨هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ، تم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[٢].

ج- عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي : تعاقب على المدرسة الحلاّوية مدرسون من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانة لكنه غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة وعين في المدرسة الحلاّوية حتى وفاته عام ٥٨١هـ أو ٥٨٢هـ بينما أقر علاء الدين على التدريس في الحلاّوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه : كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[٣].

وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى

(١) نور الدين محمود (صـ١٤٥).
(٢) تاريخ حلب (٣٠٥/٤)، نور الدين محمود (صـ١٤٦).
(٣) نور الدين محمود (صـ١٤٦).

قولها وكانت تمارس الإفتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب[٣].

د- الإمام شرف الدين ابن أبي عصورن : وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام٥٥٠هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار – غربي الموصل – الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان – بحق – من أعيان فقهاء عصره وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وفوضّه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ[١].

ه- قطب الدين مسعود النيسابوري : وفي عام ٥٤٤هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠هـ فدّرس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه : فقيه عصره ونسيج وحده ، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨ه لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها ، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨هـ[٢].

و- سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري : المتوفي سنة ٥٦٠هـ والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحّدث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم بن عساكره ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[٢].

---

(١) زبدة حلب (٢٩٣/٢). (٢) البرق (صـ١٣٤)، مرآة الزمان (٢٩٤/٨).
(١) الدارس في تاريخ المدارس (١٥٣/٢)، المنتظم (٢٤٩/١٠).
(٢) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠٨/١). (٣) مرآة الزمان (٢٩٥/٨).

ز- الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني : وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت – بعدئذ – بالمدرسة العمادية نسبة إليه وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه : الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[١].

ح- الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغددي، ملك النحاة كما يسميه سبط بن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه[٢].

ط- أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه : كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه " الروضتين ".

ي- أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ ... ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه.

ك- شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حموية: وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساو، فأقبل عليه نور الدين ورغبّه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة[٢].

٥- ابتعاد نور الدين عن التعصب : لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى – من خلال نشاطه المدرسي هذا – إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتيبّس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير : العمل

---

(١) البرق (صـ١٣٥).

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٦٥).

على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبُدع واجتهاد خلاّق إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة : ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعّم وأشمل وأبعد مدى – وثمة حادثة – من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون – تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[٢].

في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهب من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس .. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين "فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه – مجد الدين بن الداية – وقال لهم على لسانه :نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[١].

لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والكريم والسنّة المطهرة، التعصب اللذان يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال ويصدّان عن اتباع النور والهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[٣].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[٣].

(١) تاريخ حلب (٦٨/٢).
(٢) في ظلال القرآن (٩٩١/٢).
(٣) فقه النصر والتمكين (صـ٢٦٠).

وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

٦- أثر العلماء في دولة نور الدين : كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ- الجهاد ضد الصليبيين : فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد ، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م ومن أعماله التي قام بها لينضّم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ٥٦٢هـ/١١٦٦م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[1].

ب- السفارات بين الدولة : شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما يهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين ومن سفراء الاستنجاد طلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى ٥٧٢هـ/١١٧٦م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ/ ١١٣٥ -٥٥٥هـ/١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ ٥٤٧هـ/١١٣٣ -١١٥٢م) عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام وقد مرّ تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيئ (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧٢م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٣، ١٨٤).

الأثير : فأكرم الخليفة كمال الدين إكرماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين (٥٣٤ - ٥٤٩هـ/١١٣٩ - ١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[١].

ج- تولي بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك وكتابة الإنشاء وغير ذلك من المناصب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها :

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.
* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها : ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ونية حسنة، وعلم غزير، مما مكنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.
* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[٢].

خامساً : الشورى في دولة نور الدين محمود :

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم وهو يمثل أرقى أشكال التعاون قال تعالى: [وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾] (الشورى: ٣٨). كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: [...وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾] (آل عمران: ١٥٩).

وقال الشاعر :

إذا بلغ الراي المشورة فاستعن ... براي لبيب او مشورة حازم

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٦).
(٢) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري (صـ٣١٣).

ولا تجعــل الشــورى عليــك غضاضــة فــإن الحــوافي قــوة للقــوادم

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية[١].

١- الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم : ليس العمل إلاّ ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاّ وينكره، والساكت منكم مصدِّق للناطق ومصوبٌ له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به[٢].

---

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٤٥٤).
(١) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٤)، نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٠).

٢- مجالس متخصصة: كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً .. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهما الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم ... ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استعداد تشريع أو إقرار قانون ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مّر ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة وقد شبه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا... وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من : الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلة ولم يتعّده إلى غيره البتة[١].

فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلا بعد الإطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء وكان يكاتب العلماء للاستثارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب فقال له شرف الدين بن أبي عصرون : والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[٢].

٣- فراسته في معرفة العلماء : لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو

---

(١) الباهر (صـ١٧١: ١٧٣).
(٢) عيون الروضتين (٣٧٤/١)، المنتظم (٢٤٩/١٠).

يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً إن الرجل يرفض الكذب، والكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع وهو – من الجهة الأخرى – يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب ﷺ متحدثاً عن نفسه لست بالخبّ[1]، ولا الخبّ يخدعني، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن " يعبر " على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميَّة الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال : في رجب – يقول العماد – فوض إليّ نور الدين إحدى مدارسه وعوّل علي في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢هـ خلفّ ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء ، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع فقال لي : تسلم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً[2].

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف ؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى ؟ وكيف ؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بسروة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة[3].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها

---

(١) الخادع.
(٢) البرق (صـ١١٩، ١٢٠).
(٣) فقه النصر والتمكين (صـ٤٦٤، ٤٦٥).

جانب الفنون الإدارية وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنبيهم عنها في الرأي وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة : ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة ويستشار المهندسون وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة(١). لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان.

وترجل الفارس

قال العماد الأصفهاني : وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلّقت محالّ دمشق أياما.

قال : ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها :

عيدان : فطرٌ وطُهرٌ فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه حقًا هناء وأجر

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (صـ٥٧، ٥٨).

وفيهمـــــا بالتهـــــاني   رســـمَ لنـــا مســـتمر
طهـــارة طـــاب منهـــا   اصـل وفـرع وذكـر(١)

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفّراش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص(٢)،... وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وجمَّل الموكب... ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته وإلى حلب وقد جّرب الدهر بحنتكه.. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقها ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خّواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له: ياش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجلة بحديث اجله والنّاس من الختان لاَ هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعتزته عجز الأطباء عن علاجها "وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مائة" ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى(٢).

وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول : طالماً تعرضت للشهادة فلم أدْركْ وقال الذهبي : نور الدين الشهيد، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الـــدّين فـــي ظَلـــم لغيبـــة نـــوره   والـــدهر فـــي غمـــم لفقـــد اميـــره

(١) الروضتين (٣٠٨/٢).   (٢) السابق نفسه.
(١) سير أعلام النبلاء (٥٣٧/٢٠).

فلينــدبِ الإســلامَ حــامي اهلــه والشــام حــافظ ملكــه وتغــوره
مــا اعظــم المِقــدار فــي اخطــاره إذ كـان هـدا الخطـب فـي مقـدوره
مــا اكثــر المتاسـفين لفقــد مــن قــرّت نــواظرَهم بفقــد نظيــره
مـا اغـوص الإنسـان فـي نسـيانه او مـا كفـاه المـوت فـي تـدكيره
مــن للمســاجد والمــدارس باينــا لله طوعــا عــن خلــوص ضــمِيره
مـن ينصـر الإسـلام فـي غزواتـه فلقــد اصــيب بَركنــه وظهيــره
مـن للفـرنج ومـن لاسـر ملوكهـا مـن للهَـدى يبغـي فكـاك اسـيره
مــن للخطــوب مــدللا لجماحهــا مـن للزمــان مَســهَلا لـو عــوَره
مــن كاشــفَ للمعاضــلات برايــه مـن مَشـرقَ فـي الـدّاجيات بنـوره
مـن للكـريم ومـن لـنعش عِثـاره مــن لليتــيم ومــن لجبــر كســيره
مـن للـبلاد ومـن لنصـر جيوشـها مـن للجهـاد ومـن لحفـظ امـوره
مــن للفتــوح محــاولا ابكارهــا برواحــه فــي غــزوه وبكــوره
مـن للعَـلا وعَهودهـا مـن للنـدى ووفــوده مــن للحِجــا ووفــوره
من كنـت احسـب نـور دينِ محمدٍ يخبـو وليـلَ الشـرك فـي ديَجـوره
اعـزز علـيَ بليـث غـاب للهَـدى يخلـو الشـرى مـن زوره وزئيـره
اعَــززِ علــيَ بــان اراه مَغيَبــا عــن محفـل متشـرَفٍ بحضـوره
لهفــي علــى تلــك الانامــل إنهــا مَـدغيَت غـاض النـدى ببحـوره
ولقد اتـى من كنت تجري رسمه فضـع العلامـهَ منـك فـي منشورة
ولقد اتـي مـن كنت تكشـف كربـه فــارفع طلامتــه بنصــر عشــيرة
ولقد اتـى مـن كنـت تـؤمن سِـربَهَ وقــع لــه بــالامن مــن محــدوره
ولقد اتـى مـن كنـت تـؤثر قربـه فــادِم لــه التقريــب فــي تقريــره
والجيش قد ركب الغداة لعرَضِـهِ فاركــب لتبصِــرهَ اوان عبــوره
انـت الـدي احييـت شـرع محمـد وقضــيت بعــد وفاتــه بنشــوره
كم قد اقمت من الشريعة معلمـا هـو منـد غبـت مَعـرَضَ لـدِثوره

كم قد امرت بحفر خندق معقِل حتى سكتت اللحْد في محضوره
كم قيصرٍ للروم رمَت بفسره إرواء بيض الهند من تاوره
اوتيت فتح حصونه وملكت عقر بلاده وسبيت اهل قصوره
ازهِدْت في دار الفناء واهلها ورغبت في الخلدِ المقيم وحوره
اوما وعدت القدس انك منجِزَ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنسِ العِدى وتقِدس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلا فمن عجبٍ نهوضكم بحمل تبيره
يا عابرين بنعشه انشقتمَ من صالح الاعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه مستجمعين على شفير حفيره
ومِن الجفاء له مقامي بعده هلا وفيتَ وسرتَ عند مسيره
حيّاك مَعتلَ الصّبا بنسيمه وسقاك منْهلَ الحيا بدروره
ولبسَت رضوان المهيمن ساحِبا اديال سَندس خزّه وحريره
وسكنت عليّين في فِردوَسِهِ حِلف المسرّة ظافرا باجوره

قم أيها الفارس البطل وانظر إلى حكام العرب والمسلمين اليوم، أنهم هم الذين يجلبون الإفرنج لمحاصرتهم واحتلالهم وإذلالهم، وهم لا يخجلون من الله العلي القدير وهم فرحون يضحكون من الأعماق كلما أذلوهم أكثر.